مجموعة قصصية

أو نتخذه ولداً

علي عيسى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : أو نتخذه ولدا
المؤلف : علي عيسى
تصنيف الكتاب : قصص
إخراج: م/ هشام أنور
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٦٣٤٤ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 566 - 4

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مجموعة قصصية

أو نتخذه ولداً

علي عيسى

إهداء خاص

عندما نرى الأخلاق والخصال الطيبة تتجسد في بعض البشر ممن يعيشون بيننا فإنه ليس غريبا، لكنه أصبح قليلا إلى حد الندرة في أيامنا هذه رغم أني صادفته في أستاذي وأخي وصديقي ،الأستاذ ((ربيع أحمد إبراهيم مكي)) الذي تعلمت منه الكثير، وله من نفسي منزلة لم يبلغها كثيرون ممن عرفتهم في حياتي، فقد تعلمت منه الصبر والرضا بقضاء اللّه، وأدين له بالكثير في حياتي وإليه أقدم هذا الكتاب لعله ينال الإعجاب والقبول .

مع خالص تحياتي لهذا الرجل الخلوق بصفاته الرائعة وأخلاقه الطيبة، وأسال اللّه أن يهبه من فضله ما يمن به على المصطفين من عباده .

أخوك علي عيسي

الفيوم في ٢٥ نوفمبر ٢٠١٧م

شكر وتقدير

كل الشكر والتقدير لمصمم الجرافيك
((محمد ماندو))
على الغلاف الرائع للمجموعة القصصية
أو نتخذه ولدا

المحتويات

((١)) قصة بائع الفول..... ١١
((٢)) قصة الحائرة ٢٥
((٣)) قصة أرض لا تنبت فيها الاحلام..... ٣٩
((٤)) قصة وياك بحلم أعيش ٤٥
((٥)) قصة بستان عم سليمان ٦٩
((٦)) قصة لقطات من حياة مسافر ٧٥
((٧)) قصة أنا خريج توك توك ٨٥
((٨)) نوفمبر ١٩٩٧..... ٩٥
((٩)) قصة رجل بره ورجل جوه ١٠٣
((١٠)) قصة ليلة مقتل صابر ١١٣
((١١)) أو نتخذه ولدا ١٢١

بائع الفول

انبلج ضوء النهار وكانت رنات الهاتف المضبوط عند الثالثة فجرا قد ذهبت أدراج الرياح عندما نهض (راضي حسين أبو الفضل) من نومه مذعورا يعبث بشعره الهائج كأعشاب الصحراء المتناثرة التي يقتلها الظمأ في لهيب الصيف، لكنه تنهد وابتسم متعجبا من تلك الحالة التي وجد نفسه عليها عندما غابت زوجته (دعاء) عن المنزل ليلة واحدة فقط .

بعد أن قضت ليلة الأمس في صحبة أختها بالمستشفى عندما أجرت خالة أبنائه جراحة قيصريه؛ ليتحقق الحلم وتصبح أم بعد طول انتظار، حمد الرجل الله على نعمة الصحة التي من الله بها عليه، ثم نهض مسرعا ليصلي قبل أن يتناول افطارا خفيفا، لكنه لم ينس في غمرة انشغاله أن يقبل يد الام التي تحاملت رغم مرضها الأخير وتوكأت على عصاتها التي تلازمها منذ سنوات لتحضر له افطارا رغم وهن قواها ، وتوقظ ابنيه ليصحبهما إلى المدرسة قبل أن يتوجه إلى عمله، وعندما غادر الشقة مسرعا كانت تلك المرة هي الأولى منذ فترة طويله التي ينظر فيها خلفه

إلى باب الشقة المغلق كأنه يسمع صوتا ينبعث من الجدران.

(يهتف به محذرا ---------- عد إلى بيتك وأبنائك فقد أعطوك حياة طال انتظارك لها لكي تحياها ، وأعطيتهم أنت عمرك الذي مضي ولم تكتمل رسالتك بعد) رفع راضي حاجبيه دهشة وتبسم ضاحكا ثم اجتاز درجات السلم وهو يهرول سريعا إلى حيث ينهى مهمته الأولى بأن يطمئن على وصول ولديه ((آسر وأشرف)) إلى المدرسة حيث كان آسر بالصف الرابع الابتدائي وأشرف بالصف الأول وهو الابن الأصغر .

ولم تمض دقائق معدودة حتي أنهى راضي مهمته الأولى ليعود إلى المحل التجاري الذي يملكه و الكائن بشارع (أحمد الزيات) بمنطقة بين السرايات القريبة من جامعة القاهرة فاستقل دراجته البخارية؛ ليتوجه إلى عمله دون أن يصفف شعره، أو يحتسي كوبا من الشاي كما اعتاد أن يفعل منذ فتره ليست بالقصيرة، وكان قد شعر بارتياح يجتاحه وحنين غامض الى

(ماض قديم) فترنم بإحدى الأغنيات مطلقا صفيرا يعبر عن صفاء المزاج وحالة سرور مجهول لا يزوره إلا قليلا عندما عاش قليلا مع رائعة ميادة الحناوي

(هي الليالى كده) مستبشرا بهذا اليوم لسبب لم يكن مجهولا لديه.

إنه أول أيام الدراسة الجامعية وسوف يمتلئ محله التجاري بزبائن جدد من الطلاب الوافدين من الأقاليم البعيدة وبعض متوسطي الحال ممن يسكنون قريبا من الجامعة .

أخيرا راضي يقف عند عربة خشبيه داخل متجر صغير يستخدم كمخزن لتلك العربة، وفي واجهة هذا المكان وفوق بعض الأرفف المعدنية توجد بعد الأواني الزجاجية وبها بعض الخضروات المغمورة بالماء والملح والتوابل وبعض الأواني المعدنية والأطباق والملاعق وبعض من ثمار البصل الجافة والمئات من أرغفة الخبز الطازج.

كان الفتى (حسن أبو اليزيد) أحد عمال المحل قد حارب من أجلها جحافل المحتشدين عند مخبز الحاج (ياسين أبو مناع) عند مدخل الزقاق الجانبي لشارع الورشة المتفرع من الشارع الذي يقع به محل راضي الذي يقوم نشاطه على عربة الفول تلك، وذلك الاناء المعدني الواسع الممتلئ بالزيت، والذي يتخذ موضعه على النار كل صباح منذ أن افتتح المحل قبل عدة أعوام دون أن يشكو، أو حتى يئن أو يطلب الإذن بإجازة يستريح فيها من تلك النار التي تكاد تصهره فيتبخر عند كل صباح، وهكذا دارت عجلة الحياة كدأب الحال بين هؤلاء البسطاء وبعد لحظات أدار راضي المذياع وحدد إذاعة صوت العرب ليندمج في عمله متناسيا أيام

الجامعة التي هبت ذكراها على نفسه كعطر عابر في موكب عروس تُزف إلى رفيق الحياة في ليلة عمرها.

ارتدى راضي قبل أن يقسم أرغفة الخبز جلبابه الرمادي الذي اختاره سميكا باهت اللون ليحتمل بقع الزيت، و آثار العمل أمام ذلك القدر الكبير المليئ بالفول المطهو، والذي اندمج راضي في تقليب محتوياته وإعدادها ليبدأ يوما جديدا قبل أن يسرقه من نفسه وعالمه طيفا جميلا حرمته الاقدار منه تسع سنوات، وها هو يغيب عن الدنيا وتقف عجلة الزمن، ويتوقف فجأة عن العمل والحركة متناسيا كل شيئ رغم الضجيج والاصوات المتناثرة حوله والآتية من كل حدب وصوب.

ماكينة طحن الفول وأصوات الزبائن وصوت أم كلثوم التي تشدو بإحدى روائعها

(هذه ليلتي) فهمس راضي دون صوت :

يا عيني ع الصبر

ثم تمتم فجأة دون أن تتحرك شفتاه -------- شكلها ليلتي فعلا .

نزع جلبابه فجأة وغسل يده، ثم غادر المكان وهو يوزع بصره بين المحل والزبائن ومساعديه وأخيرا خرج عن صمته :

((عم سلامه بالله عليك خد بالك من المكان شوية كده وراجع لظروف طارئه))

أطفأ الرجل سيجارة لم ينل منها سوى (نفسا واحدا)، ثم حمل كوب الشاي الساخن في يده وهو يتأوه عجبا، لكنه كتم ابتسامه عابرة

قبل أن يقول بكل ود وترحاب ---------- أوامرك يا اسطى .

تحرك راضي في حذر كأنما يقدم على ارتكاب جريمة، فقد كان يجول ببصره في أنحاء المكان يمينا ويسارا، ولم يكن يفعل ذلك إلا عندما يعبر طريقا مزدحما بالسيارات، لكنه الآن يشعر بأن قلبه يعبر الزمن إلى ماضي جميل عاش فيه انسانا غير الذي يراه كل صباح في مرأة حجرة نومه لقد قطع الطريق إلى تلك المرأة التي لاحت له كطيف عابر أو حلم صيفي داعب خياله قطع الطريق في سرعة وقوة ريح عاتية غبرت كل شيئ وتركت آثارها على كل مكان حتى على القلب والروح، بل والنوافذ والجدران والأرصفة والطرقات .

لا يكاد يصدق عينيه بعد تسع سنوات يرى (نهى عثمان) التي كانت حلمه الوحيد يوما، وظلت ذكراها حتى تلك اللحظة سلوته

عندما تقسو عليه الأيام التي اعتصرت قلبه بين مطرقة المسئولية وسندان الاحتياج إلى استقرار يعينه على أن يحيا كما شاءت له الدنيا ، لا كما تمنى. اقترب منها بعد دقائق وكانت تقف داخل إحدى المكتبات التي تقدم خدمات تعليميه لطلاب الجامعة، ولم يكن على يقين بأنها قد تكون نهى التي كانت له يوما حياة فوق الحياه وروحا توقظ بدفئها روحه التي قتلتها برودة الحرمان عندما خبت شمسها ولم تشرق مرة أخرى

أخيرا قرر أن يخوض المغامرة فنادى بصوت خفيض

((نهى))

فالتفتت إليه المرأة الواقفة على الفور واتسعت عيناها دهشة وصاحت فجأة :

أيييييييييه ده راضي أبو الفضل ؟

ثم تتابعت كلماتها بسرعة كما كان يسمعها قديما مش مصدقه نفسي يا ابني والله ،

ثم ابتسمت وقد انفجرت في عينيها العميقتين ((براكين أشواق لا حدود لها))

يخرب بيت سنينك بتعمل ايه هنا، وايه اللي بهدلك كده ايه شعرك المنكوش ودقنك الطويلة دي ؟

وليه شعرك أبيض كده ؟

انت عجزت يا واد ولا ايه ؟

احتبست أنفاس راضي فشعر بغصة في حلقه من أثر فرحته التي غمرت قلبه فجأة، حتي كادت عيناه تدمعان ، فقال في هدوء :

ازيك يا نهى فينك يا بنتي من زمان وبتعملي ايه هنا ؟

فردت في سخريه بعمل حواجبي ثم ابتسمت ساخرة : هأ هأ يا ساااااتر عليك

قبل أن تردف قائلة في مرح طول عمرك غبي بس دمك زي العسل، ثم استطردت قائلة في نبرات ساخرة :

لسه غريب في أسئلتك زي زمان جتك نيله ،لكنها قالت في شيئ من الحسم والهدوء هو احنا شوية ف البلد دي ؟

يا ابني أنا بعمل تمهيدي ماجستير هنا ف الجامعة .

ضحك راضي، وقال تعالي بس الاول أعزمك على شاي وابقى ارجعي كملي تصوير،واستجابت على الفور، وصارا معا جنبا إلى جنب، ولكنه أشار لسائق ((سيارة تاكسي)) مكيفة الهواء قائلا (ميدان سفنكس يا اسطى بعد إذنك)

فقالت وقد اتسعت عيناها دهشه يخرب بيت دماغك : لسه فاكر مكاني المفضل ؟

تحت تمثال نجيب محفوظ ؟

فقال وهو يغلق باب السيارة ويتنهد في هدوء وارتياح فاكر كل حاجه حتى أول جمله قلتها ليكي من عشرين سنه لما كنتي ف الدور التاني مبنى تاريخ في كلية الآداب.

هزت نهى رأسها في دهشة وقالت

أمرك عجيب ياراضي والله ، ثم استطردت وهي تبتسم في دهشة واضحة :

طيب انت قلت ايه ساعتها ؟

قال راضي في هدوء :

قلت لك انتي في قسم ايه هنا وفي سنه كام ف الكلية دي ؟

فانفجرت نهى ضاحكة واكتسى وجهها بالحمرة خجلا ، و كادت تفترسه بعينيها اعجابا وانبهارا ثم غطت وجهها بيديها وصمتت قليلا ، وهي تقاوم الضحك بصعوبة .

ثم دار بعقلها سؤالا حائرا :

هل ما زال يذكر كل هذا لأنه فقط أحبني ؟

أم لأني كنت روحا عاش بها الحياة فيما مضى وحتى لحق الماضي بالحاضر ؟

لكنه تشاغل عنها بحديث جانبي مع السائق حول اشارات المرور وأشياء أخرى كثيرة، خشية أن يلاحظ الرجل ما يدور بعقل راضي فيضعه في مزيدا من الحرج بعد أن لاحظ السائق ارتباك الراكب الذي يبدوا أنه يمهد لقضاء ساعة في مكان مجهور برفقة ساقطه، أو عشيقة ،لكن الرجل لم يعر الامر اهتماما فلا تعنيه في هذه الساعة سوى أجرة التوصيلة ،وما هي إلا دقائق حتى كان راضي ونهى معا على مقعد رخامي بالقرب من تمثال نجيب محفوظ الذي جمعهما قديما عشق كتاباته، ومتابعة الأعمال الدرامية المأخوذة عن روايات كتبها في زمن مضى ولن يعود بفكر كان يرى فيه الرجل بعين الأديب ما يمكن أن يحدث في كل مكان وأي زمان إذا لم يستفيد المرء من تجارب الآخرين على مستوى الأمم والشعوب.

ولكن راضي لم يشغل عقله في تلك اللحظة بشيئ سوى نهى التي كانت تمثل في عينيه نهران من الخمر والعسل تمني أن يرتشف منهما طويلا وها هو يصمت بعد حديث طويل، ويقترب من شفتيها حتى كاد أن يطبق عليهما بشفتيه فيروي ظمأ طال الاكتواء به، ويرتوي بقطرات من ((سلاف الرمان)) فتنقبض جراح القلب ويهدأ نزيف الروح .

كان يرى في عيناها بحران عميقان فيهما لؤلؤ ومرجان ، ويرى في وجنتيها

نور البدر ليلة صيف وعرس لملكة من وحي الخيال على سطح القمر

كانت همساتها أرق من ترانيم الطيور عند الفجر فوق الأغصان الندية

افتقد طويلا تلك العيون التي غابت فأظلمت سنوات العمر

ذلك الوجه الملائكي الذي لم يغب عن ناظريه أبدا

فقد كان يرى طيفه في أحلامه كطيور الجنة الخضراء التي ترفرف بأجنحة بيضاء كالفضة لامعة كالألماس رقيقة كالحرير، غابت تلك الملامح فكان يشعر بقلبه الباكي يئن كأنه يقيم مأتما لا يسمع فيه إلا عويل الثكالى وأنين المقهورين كلما خلا إلى نفسه وتذكر الماضي، وانتصر راضي على صمته فقال فجأة قاطعا ذلك الصمت الذي طال :

قوليلي يا نهى انتي فين وعملت ايه فيكي الأيام ، فقالت مبتسمه ياااااااه انت لسه فاكر تسألني؟

دا أنا كنت قربت أنام وافتكرتك نسيت اني هنا معاك ، فقال مبتسما لا أبداً هو أنا أقدر ؟ ثم كرر سؤاله أخبارك إيه ؟ ردت في نبرات لا تخلو من حسرة دفينه :

أبدا اتجوزت بعد ما اتخرجت وقبلها وأنا لسه مخطوبه سافرت السعودية عند بابا فتره، وبعد ما رجعنا بابا توفي وعشت مع جوزي

ونسيت اللي فات كله، ثم نظرت إلى عينيه فجأة ، وهي تهمس في نبرات حزينة قلت أسيبك تتعود على غيابي وتعيش حياتك، ويمكن كنت على حق ودلوقتي معايا طفلين ، ثم استطردت فجاه قائله انت بقي اخبارك ايه : فتنهد بعمق وهو يئن مبتسما في مرارة أخباري ؟

الحمد لله ماشي الحال ، ثم أكمل وعيناه تتحرك في كل مكان:

بعد ما خلصت جامعه رجعت الصعيد وبعدها بكام شهر حاولت أشتغل مدرس، والحال مكنش وقتها تمام وفي الفترة دي والدي توفي قمت بايع حتة الأرض اللي ورثتها، وجبت أمي ورجعت القاهرة ، قلت يمكن نعرف نعيش حياة أفضل ، والحمد لله عندي محل تمليك وشقة دلوقتي ، قاطعته قائلة محل ايه ؟

فقال ضاحكا محل فول وفلافل أو فول طعميه .

زي ما تحبي ((تسميه)) وأشرقت قسماته بابتسامة فاترة قبل أن يكمل ((سميه))

فقالت في دهشه بقي تسيب الصحافة وتشتغل بياع فول ؟

صحافه ؟ رد راضي مبتسما :

قبل أن يردف قائلا أيام ما رحت اتدربت صحافة كنت لسه طالب وكان بيتصرف عليّ ، وساعتها كنت بآخد مقابل يناسب

طالب يعرف يصرف منه على نفسه، ثم أخرج علبة السجائر وعلبة ثقاب قبل أن يكمل حديثه ، ساعتها كان الجنيه لسه فتوه الغلابه ، وكانت الخمسة جنيه تجيب فطار وعلبة سجاير النهار ده بقى ؟

ثم ضحك في مرارة وقال كتر ألف خير الدنيا لما الجنيه يجيب ((سيجاره فرط))

وأمسك علبة الثقاب ثم ضغط عليها بين أصابعه قبل أن يواصل حديثه بنبرات يائسة، أو علبتين من دي مشيرا إلى علبة الثقاب، ثم همس وهو ينظر إلى الارض ، لكن نرجع ونقول الحمد لله.

احنا برضه أحسن من غيرنا، ثم نهض واقفا وهو يهتف في مرح :

وبعدين مالها عربية الفول اللي مش عاجباكي دي ما هي جوزتني، وفاتحه بيتي، وطلعت أمي عمره ، وكمان بفضل الله خدت شقه تمليك بدل الايجار اللي اتجوزت فيها قبل ما أخلف كمان

كله مع البركه بيكفي يا نهى

ثم قال مبتسما : ((المهم الرضا))

فقالت نهى قاطعة حديثه المرير :

انت خلفت يا راضي ؟

فقال ضاحكا الحمد لله عندي ((آسر وأشرف))

فقالت مبتسمه --- ما شاء الله

هز راضي رأسه وهو يقول بعدما أعطى ظهره لعاصفة هبت فجأة

الحمد لله ربنا أكرمني بزوجه طيبه بس كسوله جدا، لكن بنت حلال ،واستحملت معايا كتير وضحت عشاني كتير، وقبل أن تشتعل نيران الغيرة في قلب نهى التي باعدت الاقدار بينها وبين راضي رغم العشق الخالد في قلبه لها حتى لحظة اللقاء تلك.

اقترب منها راضي محاولا تقبيلها بعد أن غاصت أصابعه في خصرها محاولا جذبها اليه ليغوص في حضنها فيستعيد عمرا بأكمله في لحظات.

وضعفت نهى ، واشتعل الماضي في قلبها فجأة ، واقتربت واقترب حتي كادت الشفاه المرتعشة أن تتلاقي فيذوب جليد الحرمان، لكنها فجأة ابتعدت وهي تلملم شتات نفسها التي أنهكتها الحيرة ، قائله له في مرح مصطنع وابتسامه تحول دون انفجار بركان الدموع :

انت مش بتسمع أصاله ولا ايه ؟

ثم واصلت في نبرات مرتعشة

ليها مقطع روعة في أغنية خانات الذكريات بتقول فيه :

((أما ف الخانة هنرجع – اكتب انه معادشي نافع))

وأفاق كل منهما من ((سكرات عشق)) استبدت بقلوب ظمأت شوقا إلى

((ماض تولي)) وعندها نظر راضي إلى ساعته قائلا :يا خبر أبيض بقولك ايه اديني رقمك وخلينا على تواصل . الولاد في المدرسة ولازم أرجع المحل والا الرجالة اللي معايا هيولعوا فيا وفي المحل وفي المنطقة باللي فيها ثم ابتسم وهو يغوص في عينيها قائلا في همس عاشق محروم : أنا والله مش قادر أوصف سعادتي بيكي النهارده قد ايه ؟

لكن بإذن الله الأيام جايه كتير وكفاية أوي انك تتطمني عليّ، وكفاية اني أكون بس على بالك يلا بينا يا ((سيدة نساء الدنيا)) أوصلك حتى على الأقل لمحطة مترو البحوث، والحق أرجع للناس .

الحائرة

غادر السيارة التي كان يستقلها أمام مقر عمله بعد أن حصل على ما تبقى له من مال عندما قرر أن يعطي السائق الأجرة كما اعتاد بشكل يومي منذ ما يقرب من خمس سنوات، و صعد سلم المبنى في سرعة فائقة، كان يخشى أن يتأخر في توقيع الحضور عندما أشارت عقارب ساعة الحائط فوق رأس المدير إلى السابعة وخمس وخمسون دقيقة في صبيحة يوم لم ينم ليلته إلا عند اقتراب الفجر؛ لتأخره عن العودة إلى بيته بعد أن قضى يوماً كاملاً في حفل زفاف صديق قديم.

حاول جاهداً أن يتفادى تلك النصائح اليومية المحفورة في عقله كأنها نشيد الصباح في أيام الدراسة التي مضى عليها عقد من الزمان، وما هي إلا لحظات حتي كان قد اندمج في عدة أعمال كتابيه، وتنقل بين عدد من المكاتب لينهي إجراءات مهمة متعلقة بسفره إلى الخارج بعد أن منحته الحياة فرصة ليغادر مصر بحثا عن عمل أفضل ، ومستقبل أكثر إشراقا ، ثم عاد إلى عادته القديمة التي كان أشهر من يلجأ إليها بين أقرانه، وهي

أن يطلب الإذن بمغادرة العمل نصف ساعة لظرف طارئ، ولم يكن هذا الظرف الطارئ إلا رغبته في تناول إفطارا خفيفا مع كوب من الشاي الدافئ، ويا لها من روعة حين يتيح له الوقت أن يطقطق حجرين من أحجار النارجيلة قبل أن يقضي ما تبقى من اليوم حبيس المكتب الحديدي الذي يكاد يصرخ ألما فيهتف به:

(ارحمني بقى وارحل عني يا حسن يا عبد الواحد، زهقت من كتر رغيك مع النسوان ع الفاضي والمليان)

أخيرا حسن يتنهد وهو يعود بذراعيه إلى الوراء متأوهاً قبل أن يتثاءب مبتسما، وهو يقول في مرح :

إيييييييه مسيرها تفرج وتبقي عنب ع الآخر

ثم حك أرنبة أنفه بأنامله قبل أن يبحث في عقله عن حيله جديده ليستقطع بها بعض الوقت، أخيرا تفتق ذهنه عن فكره لا بأس بها، وهي أن يغادر إلى الحمام، ولكنه قبل أن يفعل فاجأه صوت ناعم يقول في همس :

تليفون علشانك في مكتب المدير

انطلق حسن وهو يتوجس خيفة من الأمر خشية أن يكون قد أصاب أمه مكروه ؛لأنه يعلم أنها تعاني من مشاكل بالقلب والرئتين منذ فترة ليست بالقصيرة ، لكنه تحامل حتي وصل إلى

مكتب المدير فرفع يده بالتحية في حركة آلية كأنه يستأذن الرجل صامتا في أن يترك له المكان لعدة دقائق، ثم رفع سماعة الهاتف العتيق ذو القرص المستدير المدونة بداخله الارقام قبل أن يقول في صرامة مصحوبة بصوت أجش الووووو

حضرتك مين

وعلي الجانب جاءه صوت هامس كصوت العصافير على أغضان الأشجار عند المساء قائلا في رقة :

الو أيوه يا حسن يا عبد الواحد، أنا هنادي مصطفي خضير

ثم ضحكت في رقه وهي تقاوم الانفجار ضحكا قبل أن تستطرد قائلة :

انت فاكرني يا وله ولا نسيت ؟

كنا مع بعض ف جامعة القاهرة من كام سنه، أنا هنادي يا واد بتاعة مدرج العيوطي فاكر أيام ليبتون الفتلة ؟

ثم عادت إلى الضحك ثانية قبل أن تهمس إليه فجأة، وقد تحول صوتها إلى قليل من الجدية والصرامة، ولم يخل من حزن دفين.

عايزه أشوفك يا حسن أنا عرفت رقمك لما شفتك كذا مره

داخل فرع الهيئة ده،وكنت بلمحك ف المواصلات وأنا معديه أكتر من مرة، وبيني وبينك أنا حسيت فجأة بأنه وحشتني أيام زمان .

حك حسن فروة رأسه كأنما ينشط ذاكرته بعد أن ازدحمت رأسه بالأفكار والاحداث والمتاعب والآمال كحجرة الارشيف في مكاتب الشهر العقاري أو السجل المدني، لكنه فجأة تذكر كل شيء عندما انصرف إلى بيته في موعده الرسمي، ولم يستقل سيارة في هذا اليوم فقد مضي إلى بيته مترجلا يحاول أن يستعيد خلال تلك الرحلة ما مضى من سنوات، كانت له فيها مع الأيام والحب والأحلام سنوات وصولات وجولات.

تذكر عندما كان خطيبا مفوها بالجامعة، وأحد المناضلين من أجل حقوق الطلبة ومشاركاتهم في انتخابات الاتحادات الطلابية بالجامعة والكلية، وكيف كان يحصل علي تذكرة رحله أو اشتراك في معسكر كهديه، أو بالأحرى رشوه حتى يضمن مانح الهديه أن يحاول حسن تهدئة الأجواء عندما يتطلب الأمر ذلك.

تذكر أخيرا هنادي الفتاه الفارعة الطول ذات العيون الواسعة العسلية، والبشرة الخمرية والملامح الريفية البسيطة رغم جمالها الفائق، وتذكر كيف كان يحبها ويتمناها.

أيام مضت عندما كانت للأماني مكان، وكان للعشق جدران

يأوي إليها فيبيت في قلبه آمنا من واقع يحرق الأخضر واليابس.

فجأة أزاحت مكالمة هنادي الستار عن كل الذكريات، ونفضت الغبار عن عمر جميل وقلوب خضراء نالت منها يد الأيام حتى جفت، فأصبحت كهشيم تذروه الرياح، لكن حسن لم يلبث أن قضي يوما روتينيا كسائر الأيام، ثم عاد إلى بيته مسرعا وهو يمني نفسه بالمزيد، إلا أنه تسمر فجأة على درجات السلم عندما صعد إلى شقته، وسأل نفسه سؤالاً لم يجد له إجابة.

تري ماذا فعل الزمن بهنادي ؟

وماذا تركت السنين على وجهها والقسمات من آثار وبصمات؟

لم تمر عدة ثواني حتى فاجأته طفلة صغيرة في الثامنة من عمرها بابتسامة رقيقه وهي تهمس قائلة :

عمو حسن الراجل بتاع فواتير الكهرباء عدى عليك وساب لأم مهاب وصل النور،

ابتسم حسن في وجه الطفلة، ثم قال ولا تزال ابتسامته عالقة على وجهه رغم امتعاضه :

ماشي يا كتكوته شكرا سلمي لي على بابا، ولم تمض دقيقتين حتى كان حسن داخل شقته يصافح الزوجة ويسألها عن قيمة فاتورة الكهرباء فطمأنته زوجته بقولها :

بسيطة يا أبو علي اتطمن وراك رجاله دي كلها عشرين جنيه لا راحت ولا جت،

هدأت نفسه وتنهد في عمق قائلا : الحمد لله بيت أختي ف البلد بيدفعوا ما يعادل نص مرتبي أحيانا، ثم تمتم بكلمات تنم عن راحة عميقة ورضا - ربنا ستر.

وبعد أن تناول غذاءا خفيفا دخل إلى حجرته وتعلق طفله الذي لم يكمل عامه الثاني برقبته، وهو يرتدي ثيابه قائلاً : بابا ثم انقبض وجه الطفل مبتسما، وهو يسأل الأب بإصرار: ((شولاته)) ، ثم أشار بأصابعه الرقيقة قائلا : فين ،فحمله الاب بين يديه في حنان وهو يهدهده في مرح:

هو أنا أقدر أنسى يا هوبا ؟ ثم نادى في مرح :

ارحميني يا سلوى وتعإلى خدي مهاب، ثم تظاهر بالانشغال وهو يبحث عن شيء مجهول حتى لا تتلاقى عيناهما :

عندي مشوار مهم هغيب عنك دقايق وراجع يا بطه، ولم يترك لزوجته فرصه لسماع قصيدة كاد يحفظها عن ظهر قلب .

ليس بها سوى عتاب وأسئلة لا يجد لها إجابة منطقية، وأخيرا خرج من الشقة وأوصد الباب خلفه، وكاد صفير شفتيه يخترق الحوائط وينفذ من الجدران، وهو يترنم بأغنية نجاة الخالدة

((استناني))

وها هو ينطلق وقلبه يرتجف شوقا بين ضلوعه بعد مكالمه هاتفيه قصيرة، ووعد بلقاء بينه وبين هنادي عشقه الأبدي، ورفيقة الدرب في سنوات الحب والشقاء والمتعة (أيام جامعة القاهرة)، وعند تمثال نهضة مصر كان اللقاء، ثم تلاقت الأيدي والعيون وغاص في عينيها طويلا، وكان الصمت أبلغ من الكلام، لكنه لم يطق البقاء صامتا فمزق ستائر الصمت بقوله :

ازيك يا بنت الصرمه ثم قهقه ضاحكا ، وهو يواصل حديثه :

كيف حالك وعايشه فين وايه أخبارك وبتشتغلي إيه واتجوزتي ولا لسه ؟

فانقبضت ملامح هنادي، وهي تهمس وقد خالط حديثها الضحك الممزوج بالدهشة قبل أن ترد قائلة :

بالراحة يا عم حسن – على مهلك شويه خد نفسك الأول، ثم انعقد حاجبيها وقالت مبتسمه وهي تساله في دهشه :

انت لسه لسانك طويل، السنين مغيرتش فيك حاجه أبدآ ؟

أنا عرفت انك اتجوزت وخلفت ولسه طافق زي ما عرفتك ؟

ثم نظرت الى عينيه قائله في مرح : يخرب بيت جنانك .

فواصل حسن حديثه الساخر يا بنتي هي الدنيا عايزه كده لازم نتجنن فيها قبل ما تجننا هي، ثم سارا معا خطوات قليله حتى اختارت هنادي مقعدا رخاميا تظلل عليه شجرة ضخمه وقالت :

بس هنا بقى نقدر نقعد شوية فكرتني بأيام شارع الحب اللي كان ورا ((كلية دار العلوم)) في جامعة القاهرة، وكنا بنتقابل عندها كل أسبوع مرة، لما كنت بتوصلني المترو كل خميس وأنا رايحة البيت عندنا بحجة انك هتسافر بلدكم .

ثم صمتت قليلا وتنهدت بعمق وهي تهمس ف ارتياح فاكر يا حسن

فقال وهو ينظر بعمق الى شفتيها :

عمري ما نسيت يا هنداوي فضحكت هنادي بعمق وهي تعاتبه في مرح:

((هنداوي ف عينك))

أنا قلت انه الزمن نضف لسانك الزفر، لكن انت لسه زي ما يكون التخرج كان من أسبوع

رغم إنه شوف فات كاااااام سنه ؟

ولم تلاحظ هنادي عيناه التي غاصت في جسدها وراحت تجوبه شرقا وغربا كالتائه في صحراء حين يبحث عن طريق

يهتدي اليه فنظرت اليه في دهشه وهي تقول وحاجباها يرتفعان :

بتبص على إيه يا واد انت ما تركز معايا شويه، فقال حسن وقد افاق من شرود طويل :

ها ---------- ثم ابتلع ريقه وهو يحاول السيطرة بكل ما أوتي من قوة علي ما يدور في رأسه قبل أن يرد في هدوء :

لا أنا معاك، أنا بس كنت بسأل نفسي يا ترى الزمن عمل فيك ايه، ثم عاد الى الصمت مرة أخرى، ونظر بعمق الى ثدييها المنتصبين كهرمين في واحة خضراء تضج بالحيوية والأنوثة والشباب، ثم قال فجأة قوليلي بقي عامله معاكي الأيام

انتي ؟؟؟؟؟؟؟؟ ---- فقاطعته قبل أن يكمل حديثه، قولي انت ايه الجديد ف حياتك

فقال بلا اكتراث وهو يشعل سيجاره :

أبدآ ولا أي حاجه مفيش غير العادي، يعني اتجوزت بنت سمرا زي حإلى كده وخلفنا واد زي حتة الشيكولاته سميناه ----- --- مهاب .

فقالت في مرح وقد ارتسمت على وجهها علامات السرور والرضا :

ما شاء الله ربنا يخليه ليك وتربيه ف عزك

فقال بامتنان --------- : الله يبارك فيك

ثم أردف قائلا والله أنا اتجوزت من بلدنا عشان أفرح أمي بيا قبل ما تموت، مكنش حيلتها غيري، و جبت مراتي وبعت ميراثي من أبويا ، وجيت هنا القاهرة عشان أدورعلى موهبتي ف الشعر يمكن أعرف أستفيد منها.

هتفت هنادي فجأة وقد غلبتها دهشتها يااااه يا حسن لسه بتقول شعر ؟

فقال وقد ارتسمت غضبة مصطنعة على وجهه :

طبعا يا بنتي امال كنتي فاكراني بهذر أيام الجامعة ؟

هنادي في مرح -- لسه بتشعر يعني ؟

حسن مازحا وهويحرك أصابعه فوق ذقنه --- آه طبعا لسه بشعر

هنادي بتشعر بإيه بقى ؟

حسن ساخرا : بشعر بمغص لما أشوف سحنة أمثالك يا جاهلة، ثم تعالت ضحكاتهما مجلجله ف الفضاء حتى سمعت بها الطيور والنجوم السابحة في السماء الزرقاء التي أظلتهما ، عندما لف الظلام الكون وهدأت أقدام المارة فقالت هنادي وقد

بدت علي وجهها دلائل الحسرة والندم :

والله وحشتني يا حسن وقعدتك دي خففت عني كتير من اللي قلبي شايله .

حسن في نبرة جاده لا تخلو من اهتمام يهمس إليها فجأة .

مالك يا هنادي افتحي قلبك يا بنتي وصارحيني فيه ايه ؟

ثم قال معاتبا مهما الزمن لف ودار انتي عارف انه مكانك جوايا لا بيتأثر بزمن ولا بغياب، أنا لسه بحبك ويهمني تكوني سعيدة وعشان كده لما اختفيتي فتره بعد ما عرضت عليكي أخطبك وانتي رفضتي كنت قربت اتجنن؛ لأني كنت عارف انه غصب عنك، وكنت متابع أخبارك لحد وقت قريب، وعرفت انك اتجوزتي وخلفتي بنوته وإن علاقتك بجوزك مش تمام، وفيه بينكم مشاكل بتجدد كل فتره

ثم هدأت أنفاس حسن المضطربة قليلا، وأشعل سيجارة وهو يقول في هدوء :

((عايز أعرف الجديد يا هنادي))

صمتت هنادي طويلا ثم مالت برأسها إلى الأرض قائلة في نبرات أقرب للبكاء منها إلى الحديث :

أنا ف ورطه يا حسن، أبويا جوزني واحد من بلدنا كنت بتعامل معاه الأول عادي، وبعد كام شهر لقيته بيعاملني بتجاهل ووصلت بيه الدرجة انه يضغط عليّ بأنه يحرمني من حقوقي كزوجة وأنثي يعني.

فجأة اتسعت عينا حسن عن آخرهما وهو يقول في دهشه ممزوجه بغضب عارم

مجنون ده ولا إيه ؟

واصلت هنادي لا يا حسن مش مجنون، هو بس عشان عارف اني بحبه، وقدمت تضحيات متقبلش أي ست انها تقدمها، فهو ضاغط عليا جدا عشان عارف اني مش هقدر أستغني عنه، وف نفس الوقت بيفرض عليّ حاجات صعبه زي اني لازم أديله مرتبي الشهري، وغير كده بدأت الاقي نفسي غصب عني بدور على بديل من أي راجل تاني يصبرني على معاملته دي ، زي مثلا كلمة حلوه، أو لمسهة رقيقه، ومش قادره أواجه أهلي بأني عايزه اتطلق منه؛ لأني مقدرش أعمل ده .

فجأة ينتفض حسن مذعورا كمن صعقه تيار كهربائي ويصيح في غضب متقدريش ليه ؟

هو انتي هتعيشي معاه غصب عنك ؟

فقالت في يأس وبنبرات لا تخلو من عتاب يا ابني أروح أقول لأبويا ايه ؟

جوزي هاجرني ف الفراش بدون سبب ؟

وبعدين بنتي مصيرها إيه ؟

أنا بقيت خايفه أتورط وأمشي ف سكة الحرام يا حسن .

تماسك حسن فجأة واستجمع قواه، وقال في ثبات وقوه متخافيش أنا جمبك، ومش هتخلي عنك أبدا، أنا بس عايزك تفتكري كلام ربنا (ولا تخضعن بالقول) خليكي قويه أدام أي حد طمعان فيك، ونفسه ينهش لحمك مش كل واحد بيقول كلمة بحبك حاسس بيها، أو صادق فيها، خليكي زي الأسد اللي الكل بيخاف منه .

وكان حسن قد هزم شهوته عندما عاد إلى رشده فقال فجأة اطمني.

لأني والله يا هنادي خايف عليكي، ولسه بحبك، ومستعد لو لا قدر الله تطلقي أتجوزك.

يا ابني انت بتتمنى حياتي تتهد ؟

قالت هنادي في نبرة معاتبة، ثم قالت في يأس و بنبرات تقطر ألما :

يا ريتني ما فتحت لك قلبي ولا قلت لك حاجه، لكنه ربت على كفتها هامسا :

يا بنتي اللي بيحب حد بيتمنى يشوفوا سعيد وأنا عمري ما حبيت حد قدك، ولا اتمنيت لك غير كل خير

((بس انتي محتاجه حد يسعدك مش يستعبدك))

ثم نظر الى عينيها فقرأ فيهم عذاب الأسير فصمت فجأة ، وقال معاتبا :

انتي اللي جبتي كل ده ليكي وليا، ثم قال في غضب عارم الله يلعن أبو العادات على التقاليد في يوم واحد ،ونظر إلى ساعته فقال فجأة : مش هقدر أعطلك أكتر من كده تعإلى عشان أوصلك ، وابقى تابعيني بكل أخبارك وتأكدي اني جمبك طول العمر، ثم تشابكت أيديهما حتى ابتلعهما الزحام قبل أن تركب عربة متر والأنفاق المخصصة للسيدات ، ويودعها مبتسما وقلبه يدعوا لها أن تعود إليه ذات يوم حتى يعود قلبه إلى الحياه بعدما أصبح ينبض فقط من أجل أن يحيا كتمثال بلا روح، رغم كونه أب وزوج إلا أنه لم يرضى يوما عن تلك الحياه التي تخلو من لحظة سعادة حقيقية يرضى بها عن نفسه.

أرض لا تنبت فيها الأحلام

أطفأت ((نسرين ضاحي)) ذلك المصباح الذي يرسل ضوءا خافتا فلم تعد ترى حتي أصابع كفيها، تحسست خطاها الى سرير خشبي فقير يرافقها حتي في أحلامها منذ أن أنهت دراستها بالمرحلة الثانوية، وعجزت عن الالتحاق بالجامعة لسوء ظروف الأسرة المادية

لم يتغير في حجرتها البسيطة شيئا يذكر، مازالت ترى كل يوم تلك الصفوف المتراصة من قوالب الطوب الاحمر دونما غطاء فلم تكن الحوائط مكسوة ((بالملاط))

أو مطلية بأي دهانات تذكر وعاشت الفتاه حبيسة في حوائط أربعة تسترها من عيون الناظرين ولصوص الأعراض و المارة حتي حانت تلك الليلة وما أن أشرقت الشمس حتى نهضت الفتاه لتصلي كعادتها ولسبب مجهول اجتاح الفتاه شعور عارم بالرضا كأنما انتابها إحساس مفاجئ أن هذا اليوم لن يمضي كسائر أيامها فلم تكن تعلم ما سبب تلك البشاشة التي هبت علي وجهها فأضاء

وتسللت الى قلبها فانشرح

فجأة الهاتف يضيئ ثم ينطفئ

أخيرا

هاتفها الفقير يرن في يدها بعد طول صمت

نرمين فوزي : إحدى صديقاتها تبلغها بأن إحدى الشركات تطلب موظفات للأمن بإحدى الجامعات الحكومية

أخيرا تنفتح أبواب سجن الوحدة والصمت الاختياري

وتودع نسرين ذلك الكهف الذي لم تجد فيه شيئا سوى مرافقة الفقر والوحدة والصمت

والرعب والكآبة عندما يهطل المطر.

والضوضاء عندما يلهو السيبة في ليالي الصيف في شارع قريب تطل عليه نافذة حجرتها الفقيرة فتقضي تلك المسكينة ساعات من يومها في صمت وهي تجلس بجوار

ذلك الشباك الخشبي العتيق الذي ترى منه الفتاه بصيص من حياة وتستعيد خارجه ذكريات زمن مضى ولن يعود .

وارتدت نسرين أبهى ما لديها من ثياب وبعد أقل من ساعه كانت في مقابله مع المسئول بشركة الأمن وكان القدر قد تبسم

ضاحكا من بؤسها وصبرها فاستحى أن يرد يديها الضارعتين الي الله خاويتان هذه المرة من فرصة عمل ربما تحقق عائدا يعينها علي تدبير ما تحتاج إليه كعروس تمت خطبتها قبل عدة شهور فليس لها سوى أب يعمل في احدى الجهات الحكومية ضمن حشدا من صغار الموظفين الذين تكفي رواتبهم بالكاد لتوفير الطعام والثياب

وكفى بتلك الضرورات مغنما من حربا يخوضها البسطاء مع حياة لا ترحم من لا يملك سلاح يتقي به قسوة أنياب الفقر ومرارة الاحتياج

ومضت أيام والفتاه في عملها قبل أن تمر في أحد أيام العمل سيارة فارهة يكفي نصف ثمنها فقط ليؤمن مستقبل عائله بأكملها، ثم تتوقف تلك السيارة فيغادرها رجل يبدو عليه الوقار من عطره النفاذ والسيجار الكوبي الذي يحترق في بطئ شديد بين أصابعه، وتلك النظارة الأنيقة التي يتقي بها وهج الشمس و تكاد تغطي نصف وجهه

نظرت الفتاه فجأة الى ذلك الرجل الذي يرتدي بدله ربما يكفي ثمنها وحده لعلاج امها التي تعاني من مشكلة بكليتها اليمني، و تحتاج الى جراحة عاجله لولا تعثر الحال

وبعد أقل من دقيقة ظهرت الابنة المدللة لذلك الثري الصامت بعد مكالمه هاتفيه مع الأب وارتمت الفتاه بين أحضان أبيها العائد من سفر طويل، وبعد حوار لم يستمر طويلا اقتربت الطالبة الجامعية من تلك الموظفة المسكينة التي تجرأت فقط أن تسال الفتاه عن بطاقة الهوية الجامعية فسمعت ورأت ما لم تكن تتوقع عندما دفعتها الفتاه بعيدا عن المدخل الأيمن لباب احدى الكليات بالجامعة وهي تنهرها بعنف وتحذرها من مغبة فعلتها الشنعاء تلك، إلا أن الموظفة صممت علي أن تؤدي واجبها، ولم تكن تدرك ماذا سوف تكون العاقبة لقد فعلت فقط ما يجب، ولم يستغرق الامر عدة ثوان .

لا احد يهتم إلا أن الأب لايزال يتابع ما يحدث حتى تحرك ناحية الموظفة التي ما لبثت أن أمسكت يد ابنته حتى انهال عليها الاب صفعا وتعنيفا حتى وجدت نفسها تتمنى الموت قبل أن يرى الناس ما هي فيه، ولم تمض لحظات حتي تحول الحلم الى كابوس، وأشرقت الشمس من جديد بعد أن مضت سحابة عابرة أظلت المكان.

لكنها كانت كالشمس التي تشرق من الغرب عندما تحين قيامة الفقير في دنياه فيحاسب بغير جريرة اقترفها و يحاسب القوي الضعيف في زمن لم يرَ المرء حين يطغيه المال من الحياه

إلا دنيا ليس بعدها حساب أو عقاب .

عادت الفتاة كسيرة الفؤاد إلى بيتها لا تعلم ما تخبئه لها الاقدار بعد أن تحطمت كل آمالها التي عاشت ترسمها في أيام لتبني عليها سنوات عمر قادمة، كانت تحلم بحياة ربما تهنأ بها قليلا بعد أيام حالكة طالت واشتد عذابها، وكان الصبر فيها نعم الخليل، ولكنها نسيت أننا نعيش في ((أرض لا تنبت فيها الأحلام)) .

وياك بحلم أعيش

عاد سامح أبو الوفا معلم أول الرياضيات بإحدى المدارس التجريبية بالقاهرة ذات يوم من عمله ليجد زوجته قد غادرت شقته بلا رجعة على إثر خلاف عنيف نشب بينهما ليلة أمس ، لكنه لم يعر الأمر اهتماما قط كل ما فعله عندما رأى الشقة خاوية على عروشها هو أن توجه إلى المطبخ وأعد لنفسه فنجانا من القهوة كان لا يستطيع أبدا الاستغناء عنه فقد صار من الطقوس اليومية التي تحيط بها هالة من القداسة وأضاء شاشة الحاسب الآلي المتصل بشبكة الانترنت وجلس يتصفح الموقع المفضل لديه (يوتيوب) وأخيرا يلقي سمعه إلى مطربته المفضلة نجاة في إحدى أروع أغنياتها (أما براوه) وبعدها استرخى الرجل في سريره وكان في كامل ثيابه، ولكن جسده المنهك أبى إلا أن ينال قسطا وافرا من الراحة فغرق سامح في سبات عميق امتد إلى صلاة العشاء، ولم يكن قد شعر بأي شيئ من حوله فنهض كالغائب عن الوجود منذ عشرات السنين، ومن حسن صنيع الأقدار به أن هاتفه المحمول لم يزعجه فقد نسي

الرجل في صلاة الظهر بالمدرسة أن يضبط رنين الهاتف فبقي على الحالة الصامتة رغم ورود عشرات الاتصالات من الطلاب والأقارب وغيرهم .

أفاق الرجل من نومه بعد فتره، ثم غادر شقته إلى بيت الزوجة التي رفضت تماما كل محاولاته للتواصل ورأب الصدع، وكان ما يدعم موقفها أنه لم تكن بينها وبين زوجها رابطة تدفعها لاحتمال المزيد، فلم يكن سامح قد رزق بالأطفال حتى هذه المرحلة المتأخرة من حياته وبعد زواج استمر أكثر من خمسة أعوام، وربما كان الحرمان من الإنجاب وما يعانيه الرجل في عمله كمعلم من ضغوط يوميه تفوق أحيانا حدود القدرة على الاحتمال وغيرها من الضغوط الأخرى، كانت كل تلك العوامل قد أدت إلى اتجاه الرجل بصورة لا شعورية إلى العنف اللفظي والبدني أحيانا مع زوجته فقد أصبح سهل الإثارة سريع الغضب، وكان يحتمل الكثير من المتاعب ويتغاضى كثيرا، ورغم بشاشة الوجه التي كانت تلازمه في كثير من الأوقات إلا أنه كان يضيق صدره بما يتعرض له في عمله فينفجر غاضبا، واحتملت زوجته إحقاقا للحق في فترة زواجهما الكثير والكثير، ولكن عندما فاض الكيل كان القرار بلا تراجع لأي سبب .

وعندما حدثت المواجهة التي لم يغب فيها المهندس (منصور

حسانين) والد الزوجة التزم زوجها سامح بأقصى درجات الهدوء، لكن لم يظهر للأسف ولم يبدي اعتذارا مما أوغر صدر والد الزوجة ضد زوجها فلم تكن للأب أي محاولات للضغط على ابنته لقبول أية ترضيه لم يقر سامح بقبولها، أو رفضها بعد لكنه كان يميل إلى الاستقرار عندما أرسل أخته الصغرى إلى زوجته لعلها تستطيع أن تقنعها بأن تتنازل عن قرارها بالانفصال أصبح لا يهتم بأمر زوجته بعد أن باءت محاولات عدة بالفشل، وأصبح لا يبالي للأمر وبدأت تظهر هذه اللامبالاة في سلوكياته اليومية، لكن الزوجة (ياسمين) التي زارتها أخت زوجها في بيتها كثيرا بقيت حائرة بين المودة والعلاقة الطيبة التي تربطها بأخت زوجها وبين تصرفات هذا الزوج المخجلة أحيانا حتى انفجرت ياسمين غاضبة في وجه مديحه أبو الوفا أخت زوجها قائلة لها في نبرات غاضبة :

((تفتكري انتي لو في مكاني وجوزك ضربك بالقلم على وشك لسبب تافه زي انك مثلا نسيتي تكوي طقم كان محتاجه في مشوار مهم انتي تقبلي ده على نفسك ؟))

واستبد الحرج بمديحه التي لم تستطع أن تنطق بحرف واحد، لكنها ربتت على كتف ياسمين محاولة ترضية المرأة بما أوتيت من قوة؛ لأنها كانت تعلم أن أخيها يصعب على من لا يعرفه

جيدا أن يحتمل عنف أفعاله وسوء طباعه عندما يتكدر صفو مزاجه لأمر ما، وكان الفراق بينهما حتميا وبعد أقل من أسبوع حصل الزوج على أجازة بدون أجر، وتمكن من السفر إلى المملكة العربية السعودية من خلال تعاقد بوظيفة معلم بإحدى مدارس المملكة فلم يعد يحتمل سوء الأوضاع الحالية في مصر لاسيما شئونه الأسرية، وما تشهده حياته من اضطرابات وقضى الرجل فترة طويله خارج البلاد لكنها لم تزيد الأمور إلا سوءا وتعقيدا بعد أن اتخذت زوجته قرارا بالانفصال عنه، وكان قرارها قد صار في قوة القوانين ذات المرجعية الدستورية، أي لا يجوز التراجع فيه أو التعديل أو التغاضي عنه ومضت عدة شهور قبل أن يعود سامح إلى مصر في زيارة أولى بعد سفره ليفاجئ بأن زوجته مصممة بلا رجعة على أن تنال حريتها وتنفصل بالطلاق، ولو كان بإجراءات قانونية ، لكن الرجل رحب بالأمر قائلاً في نفسه :

((اللي مش عايزني قيراط أنا مش هبقى عليه ليوم القيامة))

واتخذ قراراً لا رجعة فيه بأن يقضي ما تبقى له من أجازة في شقة الأم القديمة بحي عابدين، وغادر مدينة نصر وعزلتها بمزيد من السخط واللعنة وأخيراً يرتمي في أحضان أمه الدافئة كالظامئ يلتمس ماءا يعيد إليه الانتعاش والشعور بالحياة .

كان حضن أمه في تلك اللحظة القاسية شعاع شمس ولحظة دفئ مفقودة في زمهرير الحياة الصاخبة، وقد كانت الأم على علم بكل ما يدور رغم انقطاعها للعبادة والصلوات منذ أن توفي زوجها قبل أعوام، وعاد سامح يستيقظ مبكرا ليواصل زيارته لكل الأصدقاء القدامى التماسا لأي جديد .

في حياة راكدة كبحيرة آسنة تبحث عن يد صبي عابث يلقى بها حجراً

((ولكن خلت الأرض من الصبية ونضبت الأحجار))

فبقيت حياته على رتابتها فلم يعد يهوي زيارة أحد بعد أن أمضى أسبوعا كاملا على هذه الحال زار فيه معظم من صادفهم ذات ليلة، أو جمعته بهم مسيرة سنوات من عمر كاد ينتصف دونما إنجاز يذكر، فقد كانت شقته التي تزوج فيها من مال أبيه ولم يقدم هو لنفسه شيئا حتى اللحظة التي ارتمى فيها بين أحضان الأم التي بكى قلبها وإن احتفظت عينيها بابتسامة فاترة حتى لا تزيد أحزان الابن الوحيد الذي انفصل عن زوجته ليعود من جديد أعزب يحتاج إلى من يرعاه ويؤنس ليله كما كان في مرحلة الجامعة في مدينة الطلبة التي كانت تأويه ضمن جموع حاشدة من المغتربين بمنطقة امبابه بالجيزة قبل أن يقيم أبيه وأمه في شقة الجد الذي اشتراها في منطقة عابدين بوسط

القاهرة بعد أن قامت ثورة يوليو ليكون الجد على مقربة من بؤرة الأحداث فقد كان الجد شغوفا بمتابعة كل جديد، وكان يتمنى أن يكون كسائر الأعيان عضوا بالبرلمان، لكن الموت سحق الحلم وتوارى الجسد عن الدنيا وأصبح لا يملك من متاع الدنيا شيئا ولا يشفع له من زينتها وزخرفها شافع .

وانقضت أيام الأجازة وودع الأستاذ سامح أمه قبل سفره إلى السعودية ليواصل عمله خارج مصر حتى يحقق استقرارا نفسيا يسمح له بالعودة، لكنه لم يلبث أن عانى من الوحدة والحرمان بعد أن تركه الرفاق في مسكنه المؤقت بمدينة الرياض وحيداً، فقطع على نفسه عهدا ألا يعود إلى تلك الأرض مرة أخرى وأخبر ابن عمه (سالم أبو اليزيد) برغبته في العودة إلى مصر.

ولم يبدي الرجل تحفظا على قرار سامح فقد كان يعلم أنه صاحب عقليه مختلفة عن باقي شباب العائلة ولا ينفذ إلا ما يدور برأسه فقط ، فلا مشورة عنده لأحد ولا قرار يخص شئونه لسواه ،وإنما كان يعرض على الناس ما ينوي فعله سواء قبل البعض أو رفضوا فإنه ماض في طريقه لا محالة وأخيراً، وبعد ساعات طويله من الانتظار تعلن مكبرات الصوت الداخلية بمطار القاهرة عن وصول الرحلة رقم ٧١٦ القادمة من السعودية ويجد سامح ابن العم في انتظاره بسيارته الحديثة حتى يتفادى الرجل مغبة

البحث عن سيارة يستأجرها لتعود به إلى بيته، وعاد الرجل الذي ظهرت على وجهه فجأة علامات التقدم بالعمر، واكتست جوانب رأسه بخصلات بيضاء كلون الفضة من شعره الناعم الذي كان يزيد من وسامته والتي ظل يحتفظ ببصيص منها إلى الآن فقد كان خمري البشرة ضيق العينين مدبب الأنف يميل إلى الطول والنحافة قليلا ،ولم يعد الرجل في تلك السن يستمتع بشيئ أعظم من البقاء وحيدا كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد قضى على هذه الحال وقتا ليس بالقليل وإن أخفى في نفسه كثيرا مما يحاول أن يظهر للآخرين نقيضه، فقد كان يتحدث دوما عن أنه ينعم بوحدته وأنه نادم على الاستمرار في زواج فاشل طيلة هذه الفترة، لكنه بدأ يبحث الآن دونما إعلان مسبق أو منطوق عن زوجه، ولم يكن يعلم ما تخفيه الأقدار فقد استقبله ابن العم ((سالم أبو اليزيد)) في بيته ضيفا حتى يستريح من سفره، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها سامح قد ظهرت في حياته عندما دخل بيت ابن عمه لأول مرة بعد غياب سنوات عدة ربما امتدت لعشر سنوات أو ما يزيد قليلا .

ظهرت فتاه رائعة الحسن وكان أول ما بدا له منها ابتسامة كانت كخيوط الشمس الذهبية التي ملأت حياته بدفئها بهجة وسرورا، وأذهبت عن القلب شقائه وعن الجسد وهنه وعن

الروح آلامها وبؤسها فاخضرت الأرض وأينعت وأرعدت السماء فأمطرت، وأخذت الأرض زخرفها وتزينت .

عندها فقط ابتسم القدر لسامح لتعوضه الأيام عن ما ضاع من عمره كله في لحظات فلم تمضي ساعة أو ما يزيد قليلا حتى اجتمع أهل البيت حول مائدة الطعام، ولم يكن سالم يحسب لتلك اللحظة حسابا عندما شاركتهم على المائدة (رانيا عبد الرحمن)

والتي ما إن وقعت عينا سامح عليها حتى أبحرت سفينة قلبه في بحار عينيها بغير شراع،

وكانت ابتسامتها وبريق عينيها بلا صوت

((معزوفة كمان في ليلة صيف رائعة النسمات))

أيقظت في نفسه شجون وأشواق إلى زمن مضى حاملا ذكريات استبد به الحنين إليها،

فجأة يعيد سامح إلى دنياه صوت زوجة ابن العم وهي تنادي من بعيد :

((رانيا تعالي عايزه أقولك حاجة))

وغاب نورها من المكان وبقي عطرها يتسلل إلى أعماق الرجل ليخدر كل آلام الحرمان وتباريحه فقد كانت الفتاه عشرينية

بارعة الحسن يضيئ وجهها كإشراقة الشمس التي تغمر الكون دفئا وقوامها كالغصون التي تميل حين تهمس إليها النسمات شوقا، وكان بريق عينيها كابتسامة طفل ارتمى في حضن أمه ملتمسا دفئا وحنانا.

ولم تكن شفتيها إلا نبيذا معتق يُسكر الناظرين إليه فيتجرعون كؤس العشق حتى الثمالة،

وغابت رانيا قليلا، ولكن لم يخبو عطرها ولكنها عادت بعد دقائق تهمس في رقة

تحبوا الشاي دلوقتي، ولا بعد ما تآكلوا الكنافة بالكريمة ؟

رفع سامح حاجبيه دهشة ونظر إلى سالم وابتسامته الماكرة لم تفارقه بعد ،ثم وكزه في مرح وهو يقول في لهجة لا تخلو من الحيرة :

عرفت منين إني بحب الكنافة ؟ ثم صاح مازحا :

وبالكريمة كمان ؟ دا انت قاري دماغي بقى.

ثم انفجر ضاحكا ولم يحول بصره عن ذلك المكان الذي كانت تقف فيه رانيا منذ قليل

ربت سالم على كتف صديقه الحائر، وقال في نبرات تقطر

حبا واحتراما

وعارف دماغك رايحة فين كمان يا عم سامح

وأحب اطمنك انه ممكن ومش صعب ولا حاجه رغم كل مخاوفك

ومع تقديري لكل اللي انت متصوره عوائق أدامك

تنهد سامح فجأة وحك ذقنه بأنامله كما اعتاد عندما يشغله أمر مهم

ثم غمغم بلا صوت

امممممممممم

و همس مبتسما

يعني انت على طول كده فهمت أنا بفكر في إيه ودماغي رايحة فين وحددت كمان العقبات والظروف اللي ممكن تقف أدامي ؟

فابتسم سالم وهو يؤمأ برأسه قائلا طبعا يا باشا، ثم نهض فجأة ليستقبل الشاي قبل أن

يستطرد قائلا :

يا واد دا انت ابن عمي ومتربي معاك من صغري وعارف كل شيئ عنك

تكونشي فاكرني زميل دراسة شفته كام سنه واختفى ؟

تنهد سامح في ارتياح قبل أن يقول بلهجة لا تخلو من أمل في حدوث جديد

وانت شايف ايه يا سالم ؟ ثم تبع سؤاله بآخر قائلا يا ترى هينفع وأنا ف السن ده ؟

قاطعه سالم قائلا :

لسه بتشرب الشاي سكر زياده زي زمان ولا بطلت الحكاية دي ؟

ضحك سامح قائلا يا ابني أبطل ايه تكونشي فاكرني كنت بشرب حشيش مثلا ؟

دا شاي يا عم الحج مشروب المصريين الرسمي ولم ينتظر سامح إجابة من صديقه فانصرف مودعا، وهو يتصرف بسرعة وارتباك لا مبرر لهما قبل أن ينظر إلى سالم قائلا :

بقولك إيه أنا هستأذنك رايح للحجة والدتي دلوقتي ونكمل الكلام بكره لأني عايزك ضروري

وبكره كمان اجازة يا عم ذكرى المولد النبوي كل سنه وانت طيب، وانصرف سامح مودعا دون أن يكمل احتساء الشاي

ليودعه سالم بنظرات ضاحكة لا تخلو من دهشه وانطلق سامح، لكنه لم يتوجه إلى بيت أمه على الإطلاق فقد آثر أن يقضي ليلة عند ماسبيرو وهو يتابع في صمت المراكب النيلية التي تتراقص على صفحة النيل وتنعكس عليها الأضواء في تناغم رائع وأمعن سامح النظر في ضوء القمر الذي نشر نسيجه الفضي على صفحة النهر والأشياء وأغصان الاشجار لكن سامح لم يكن يولي كل ذلك اهتماما فقد هزته نشوة رائعة فشعر بأنه يعشق الحياة بكل ما فيها وتذكر صوت رانيا الهامس الذي نحت في أعماقه مسارا خالدا ومجرى جديدا لنهر العشق والهوى الذي جف منذ زمن بعيد ونهض سامح مغالبا رغبته في إضاعة المزيد من الوقت مستقلا سيارته ليعود إلى بيته وهو يترنم بمقاطع من أغنية قديمة، فلم يعكر صفو ليلته أمراً حتى أشرقت شمس اليوم التالي ليفاجئ والدته قائلا :

((ماما أنا بفكر أتجوز مره تانية))

وانفجرت ينابيع الفرحة في وجه الأم الذي تورد وجهها فرحا وشاركتها الدنيا فرحتها التي بدت من عينيها وهي تقول في سرور بالغ :

يا الف نهار أبيض يا ابني ،ثم استطردت قائلة : يوم المنى يا

حبيبي لما أشوفك متهني في بيتك ومعاك عيل من صلبك يشيل اسمك وتفرح بيه، وهنا ارتعشت قسمات وجه سامح حيرة وخجلا في الوقت الذي وجد فيه أنه لزاما عليه أن يبلغ أمه بمن يفكر فيها، لكنه بقي حائرا للحظات بين الأقدام على أخذ رأي الأم وأن يؤخر تلك الخطوة حتى يكون هناك قرارا يمكن أن يستند إليه خوفا من الشعور المرير بالخذلان لوباء الأمر بالفشل، فتعلل الرجل بحجة ضعيفة ليتخذها مطية للهروب من مواجهة أمه وادعى أنه على موعد مع طبيب الأسنان لأنه يريده في أمر مهم لا يمكن تأجيله وانفلت الرجل بعينيه من نظرات أمه التي حاصرته بعينيها متسائلة في صمت :

((حبيبتك من تكون يا ابن عمري))

غادر سامح شقة الأم مسرعا وقبل أن يستقر بداخل سيارته اتصل هاتفيا بسالم ليحدد معه موعدا للقاء عاجل، لكن سالم أبلغه أنه سوف يلقاه في المساء؛ لأنه يريد أن يشتري معطف ويحتاج إلى مساعدته في اختيار اللون وأشياء أخرى، وكان سالم يتخذ الأمر ذريعة للقاء سامح لسبب لم يعلن عنه حتى لزوجته إلى أن لف الظلام الدنيا واتشحت السماء بالسواد فالتقى الصديقان عندما ((أقبل الليل))عند مقهي قريب، وبعد أن تناولا قدحين من القهوة صاح سالم مازحا :

تصور شفت النهارده العصر جاكيت جلد مستورد تمنه ٢١٦٥ جنيه ؟

فهز سامح كتفه وهو يرد في لا مبالاه وإيه يعني غريبة دي ؟

فقال سالم متحسرا : مش غريبه ولا حاجه بس يعني الدنيا ولعت اللّه يكون في عون الغلابه،

ضحك سامح فجأة، وهو يعنف صديقه ساخرا :

هو يعني الغلابه لازم يشتروا جاكيت تمنه يعدي ٢٠٠٠ جنيه ؟

سالم في سخرية مماثله طبعا يا عم "مدرس ماس" بقى مين قدك يا سيدي

يعني تقدر تقول كده رياضيات وتجريبيات وواكلها والعه في الدروس الخصوصية محدش قدك يا مولانا ثم انفجر ضاحكا قبل أن يردف قائلا :اللي زيك هيحس بالغلابه ازاي يا عم الحج

قرب سامح يده المفرودة الأصابع من وجه صديقه قائلا خمسه وخميسه النهارده الخميس بطل نبر هتجيب أجلي يا عم الحج، آديك شايف الوزارة مقلوبه على حكاية الدروس وعندهم حق واللّه

اتسعت عينا سالم دهشه، وهو يقول :

أول مره أشوف مدرس يقول الوزارة عندها حق

سامح معقبا في نبرات توحي بالأسى والاشفاق ، اه والله يا عم، الله يساعد أولياء الامور الناس تعمل ايه ولا ايه، كتر خير اللي عنده عيلين تلاته في ثانويه واعداديه ده مسكين بيتعذب عشان يعلم عياله ،وبعدين برضه الدروس إساءة لكرامة المعلم.

انتفض سالم وافقا كأنه يوشك على الاشتباك مع خصم :

أمال يعمل ايه المدرس ومرتبه ممكن ميجبش طقم على بعضه ؟

سامح بكل هدوء وهو يقضم تفاحه :

بيعمل مليون نشاط يعيش منه، بس مش لازم يمد ايده لولي الامر، وبعدين كفاية الحرب المفتوحة على الحكومة اليومين دول، زودوا المرتب والحوافز ومش الحوافز إيه يا عم ده ؟

لازم يكون فيه نظرة موضوعيه للأمور يا سالم، لازم تعرف انه عدد المدرسين في مصر بس لوحدهم أكتر من عدد سكان كام دوله عربيه من بتوع الخليج مع بعض، والبلد فيها فساد للركب وكتر ألف خيرها انها لسه واقفه على رجليها لحد النهارده بعد كل ده الله يكون في عون كتير من المسئولين، البلد كبيره برضه يا أخي، وبعدين سيبك من الكلام اللي يفور الدم ده

وتعالى نتعش أنا عازمك يا عم عشان تبطل تقر عليا...

ضحك سالم وهو يمازحه ماشي يا عم متخفش أنا ماليش في الحسد، فقال سامح في نبرات حزينة، والله يا عم من ساعة ما اتجوزت وعملت محل الموبايلات بتاع شارع عبد العزيز ده وأنا بطلت دروس نهائي بصراحة.

لا عندي طاقة أبهدل نفسي مع الطلبة ولا شايف انه فيه بركه في فلوس الدروس دي

ثم قال مازحا :

الله ينكد عليك كان لازم تشتري لبس النهارده ؟

خلينا في الأكل طيب هتآكل إيه ؟

وهنا تنهد سالم كمن تحقق له حلم بعيد وقال تبقى فراخ مشويه ...

ربت سامح على كتفه وسار إلى جواره قائلا :

أنا بقى يا عم نفسي آكل سمك، ابتسم سالم وهو يمازحه قائلا تموت انت في السمك طول عمرك مقلي و مشوي و حتى صاحي، ثم همس اليه كأنما يبلغه سرا ...

طول عمرك شقي يا سموووووح وانفجر ضاحكا قبل أن يتمتم سامح قائلا :

وفي الآخر كلت مطب جبار وربنا وعدني بزوجة، ثم ضغط على شفتيه بأسنانه معلقا

أجارك الله يا عم والله .

ظهرت بوادر الضيق على وجه سالم الذي احتفظ بابتسامته قائلا :

عندك حق والله كانت شبه (السحلية الدكر)

غاب سامح في نوبة ضحك طويله قبل أن يرد متعجبا :

الله يخرب بيت سنينك يا أخي هو فيه حد مثلا جه على باله قبل كده يقعد يقلب في السحلية شمال ويمين عشان يعرف اذا كانت دكر ولا نتايه ؟

ربنا ياخدك يا بعيد...

ثم ضحكا معا قبل أن يستقر بهما المجلس في أن المطاعم الشهيرة وقبل أن يقدم لهم الطعام اشعل سامح سيجارة، ثم همس مترنما

يا بحر يا!!!!!!!! أبو البحور موجك لعب بيا ------- شوقتني للسمك نزلت ليه الميه

ثم ضحك متأوها وهو يطلق صفيرا يدل على الحالة المزاجية الرائعة التي احتوته عندما

تذكر ((ضيفة عشاء الأمس))

وبعد تناول الطعام برفقة سالم عاد سامح إلى بيته مستقلا سيارته، وكان في حالة رائعة من صفاء الذهن وتوهج الروح ولم يكن يدور بخياله سوى تلك الفاتنة التي تسبح في سماوات العقل وترتسم على جدران الروح وقد ملكت همساتها منذ اللحظة الأولى مفاتيح القلب الذي لم يذق طعم السعادة قبل لقائها منذ سنوات بعد أن غاب عن خياله طيف الفاتنة((حسناء أبو اليسر)) ملكة جمال كلية التربية كما كان يلقبها مع الأصدقاء، والتي كان يذوب شوقا اليها في سنوات الدراسة كلما غابت عن المدرجات يوما ، وكان يشعر عند لقائها برعشة المحموم الذي أصابته نوبة إعياء تحتاج إلى معاودة الطبيب، حتى ذلك الحب الخالد في نفسه للفتاة ((منى رجائي)) زميلة المدرج بالفرقة الرابعة، والتي كان يلقبها بالأسطورة وكان الرفاق يعرفونها باسم صديقة حي الزيتون قد توارى عشقه لها وتعلقه بها مع مرور الأيام وتوالي الأحداث، لكنه أخيرا يقضي ليلة على ضوء الشموع في صحبة روائع أمير الغناء العربي هاني شاكر، والذي اختار له في تلك الليلة رائعته الشهيرة ((حكاية كل عاشق)) ، وكان يردد بحذر جملته البالغة القسوة ((ونفارق في النهاية)) ، لكنه على أية حال قضى ليلة ممتعة بروح تشع بالنور وشعور عارم بالرضا حتى نام قرير العين كأنما

لم يذق للشقاء طعم في دنياه من قبل فقد تبخرت الآلام بفعل ((لمست الروح فأضاءت ومست القلب فرق)) ، وعاش في جنة الأمل حتى نامت عيناه، وهو يأمل أن ينال القلب ما يتمنى وما إن أشرق الصبح حتى قضى يوما تملئ ساعاته الحيوية والنشاط، وكان سالم قد عقد اتفاقا مساء الليلة الماضية مع زوجته نشوى أخفاه عن سامح حتى لا يفسد عليه المفاجأة فقام بالاتصال به ليستضيفه في بيته على الغذاء في ذلك اليوم، وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام تعلل سالم بالانشغال بأمر طارئ كان قد نسيه منذ فتره واستأذن سامح في مغادرة البيت لكن سامح أصر أن يصطحبه إلى خارج المنزل وتبعتهما نشوى زوجة سالم وضيفتهما رانيا، وعندما استقل سالم سيارة أجرة تعللت نشوى بحجة غير واقعية بالمرة حيث توارت بعد لحظات قبل أن تبلغ سامح ورانيا بأنها تريد أن تشتري

((بطاقة شحن رصيد لهاتفها المحمول))

وكان سامح قد قرأ ما تم تدبيره في الخفاء فأعد العدة للفوز في معركته الأخيرة واقترب من رانيا هامسا :

اخبارك يا ست البنات وردت رانيا والخجل يحبس انفاسها فلم ترفع عينيها لترى وجهه

أنا الحمد لله كويسه أخبارك انت ايه ، فقال بصورة مفاجئة الجمتها عن النطق

حياتي وحشه أوي من غيرك، ثم ألقى فجأة جمله كانت كقنبلة دخان عندما قال:

((رانيا أنا عايز أتجوزك حياتي من غيرك لا ليها معنى ولا وجود ولا طعم))

فنظرت إليه وقد احمر وجهها خجلا، وحبست المفاجأة أنفاسها لكنها استجمعت كل قواها

فقالت فجأة : حضرتك بتقول إيه يا أستاذ سامح انت مدرك الفرق بيني وبينك كام سنه ؟

فقال سامح في نبرات تفوح منها رائحة اصرار: عارف انهم حوالي ٢٠ سنه أو أكتر شويه

لكن --- قاطعته رانيا فجأة وعارف انه حضرتك كنت متجوز وطلقت ؟

فقال سامح مندفعا يعني إيه طلقت ؟ هو الحاد أو جنون ؟ ثم استطرد غاضبا :

هو اللي يفشل في مرحلة من عمره يتحكم عليه بالإعدام يعني؟

فردت رانيا وقد اخذتها بالرجل حالة من الرأفة، مبعثها ما لمسته في حديثه من صدق وما شعرت به من مشاعر يحملها ولم يبح بها قلبه الذي لم يهنأ بالحياة المستقرة إلى حد بعيد

كما علمت من شقيقتها الكبرى في حديث طويل مساء أمس :

لا مش قصدي حضرتك بس أنا يعني أقصد انه ----

وقبل أن تكمل حديثها رفعت عينيها إلى وجه سامح فاذا به يغوص في نهر الخمر المتدفق من عينيها، ويتجرع سحر عينيها حتى الثمالة بعد أن اقترب منها فجأة كأنه يود أن يرتشف من شهد شفتيها قطرات تمحو مرارة أيامه، لكنه التزم الصمت فقرأت الفتاة في عينيه حديثا لم ينطق به لسانه عندما رأت عيناه تصرخ مستعطفة :

كوني إلى ((جواري)) وسوف تكوني في حياتي ملكة وكل نساء الدنيا بعدك ((جواري))

وانتابتها حالة من الحيرة فقالت : لتهبه أمل ينتظره ذلك الغريق السابح في نهر عينيها ،

عموما يا أستاذنا أنا بس بخاف من جواز القرايب والمعارف اللي بتربطهم علاقات نسب ومصاهرة متشابكه زي دي تجنبا لمشاكلها، لكن لو أراد ربنا استحاله حاجه تقف أدام إرادته،

ادعي ربنا بس وسيب الامر كله لله، وتأكد تماما لو لينا نصيب مع بعض مفيش مخلوق هيقدر يمنع قدر ربنا من انه يحصل، وأنا أوعدك إني هعيد التفكير في قراري بخصوص الموضوع ده، مع إنه كان من الموضوعات اللي أنا كنت متحفظة عليها، لكن بمجرد ما أختي لمحت بيه من فتره أنا واجهت فتره صعبه جدا من التفكير، صعب أقول موافقه وصعب أرفض؛ لأني أنا بصراحه محتاره ومش قادره آخد قرار.

فتهلل وجه سامح وأشرق النور في وجهه بعد ظلمة أطاحت بفرحته وزرعت بذور الشك في قلبه فتنهد بارتياح قبل أن يقول قبل وداعها بعد أن شعر بتجدد الأمل تأكدي يا رانيا اني هبقى أسعد إنسان في الوجود لو ربنا عوضني عن صبري وعذابي اللي عشته في الدنيا قبل ما أشوفك بأنك تكوني من نصيبي ولم يطل معها الحديث فقد شعر بأنه لا جدوى من الإكثار في القول والوصف...

((فالعصفور الاسير لن تغنيه عن الحرية كل الاقفاص الذهبية على وجه الارض))

فترك الرجل للفتاة حرية القرار وانصرف مودعا بعد أن همس مبتسما :

أنا منتظر قرارك وبإذن الله مش هتندمي أبدا

وكانت قد مرت عدة دقائق قبل أن ينطلق بسيارته إلى مكان لم يكن يحدد لماذا يتجه إليه فقد غاب في أطياف جميلة مع أغنية قديمة كان يترنم بها دوما حين تصفو له الأيام فردد مع عمرو دياب بعض كلماتها وهو ينطلق ناظرا إلى مرآة السيارة متجها إلى كورنيش النيل قبل أن يحدق في المرآة ليتابع الفتاه التي ودعته مبتسمة والحيرة تأكل قلبها فتشاغل عنها بزحام الطريق قبل أن يهمس قائلا :

وياك بحلم أعيش أجمل لياليا ---------- وياك ما بينتهيش الحلم في عنينا

وأكمل عمرو دياب بصوته الساحر :

بحلم بعنيك تآخدني -------- وانت والشوق في حضني

وخرجت الكلمات من صميم أعماق سامح وهو يردد :

بحلم وهواك يا حبيبي -------- آخر أمل لينا

بستان عم سليمان

وهنت قواه، ولم يعد يقوي علي السير حين اشتد لهيب الشمس، ولفح وجهه لهيباً كأنه ريح عاصف من قاع الجحيم تعامدت الشمس على جبينه المحترق ،وجف حلقه نفذت من لحظات آخر قطرة ماء كانت في زجاجة رافقته في الحقل منذ الساعات الأولى من الصباح، حاول قدر جهده أن يتغاضى عن الألم المبرح الذي تسلل إلي كل ذرة في كيانه ،وابتلت لحيته من آثار العرق الذي ينساب على جبينه حتى أطراف أصابع قدميه البادية من شراك نعله بما يغطيها من أوساخ وأدران ،وها هو ينظر خلفه ويأسف لحاله حين رأى نفسه وحيداً في طريق ترابي طويل يمتد كسنوات) عمر تعس (خال من السعادة يستبد به الإعياء والتعب ولايزال الوقت به متسع حتي يؤذن لصلاة العصر ،وقد أمضي نصف الظهيرة في حقل يعمل به أجيراً، لم يغادره إلا عندما صاح به طفل صغير ليبلغه بأن صاحب الحقل لن يعود لانشغاله بتشييع جنازة أحد الأصدقاء ، وها هو ينهي عمله ويحمل فأسه ليعود إلى بيته قبل أن تلفح وجهه عاصفة ترابية جافة تزيد وجهه الأسمر

وحاجبيه الكثيفين تغبرا، وتملئ لحيته الهائجة طبقة جديدة من غبار كثيف زاده مع العرق بؤساً وشعوراً لا يستطيع أن يكظمه من الضجر والاشمئزاز، وها هو يقطع الطريق آيبا إلى بيته الخاوي حتي من كسرات الخبز الجافة .

ولا ينسَ أن زوجته ليس بيدها أن تعد له حتي وجبة طعام نباتية فقيرة يمكنها أن تهدئ بها من قرقرة معدته التي ضمرت من شدة الجوع، واشتد عواء ذئابها الضارية مطالبة إياه بما يسد رمقه لا يزال في مسيرته ينظر خلفه فيجد أن الطريق يتجدد كلحيته التي كلما أزالها تنمو من جديد، لكنه لم يفقد الأمل في أن تدركه رحمة خفية وها هو يضع أنامله فوق عينيه ، ويجول ببصره بين ما مضى وما هو آت حتى لاح لعينيه سور بستان شُيد من الطين وقطع الأحجار فجأة انتابته هزة من أعماقه مبعثها تجدد الأمل في أنه قد يجد عند أسوار البستان ملاذا ،وها هو يقترب من سور البستان وقد هدأت الرياح والعواصف فاتخذ من حجر ضخم ملاصق لسور البستان مجلساً وأخذ يلتقط أنفاسه ممنياً نفسه بالمزيد رغم ثيابه الرثة البالية ورائحته الكريهة إلا أن للجوع كلمة حاسمه في أن يبقى مكانه فالجيب خاوي والمنزل أيضا ولم يتقاضى عن عمله أجراً فماذا عساه أن يفعل ؟ لا مناص من مواجهة شرسة، إما مع صاحب البستان أو مع الموت جوعاً،

وها هو يستجمع قواه ليقف بشكل مفاجئ، وفي قفزة انتحارية يحاول أن يتسلق السور ممسكاً بعصاة غليظة ضارباً بها إحدى الأشجار فاهتز ساقها وأسقط تفاحة، وها هو يلتهمها بنهم عائداً من كهف لبث فيه بضع سنين ويدٍ تمسك بأحجار السور متشبثةً به كتشبث الغريق بطوق نجاة، والأخرى تتأبط العصاة بينما تقترب أصابعه من فمه لتهب المعدة ما يهبُ صاحبها الحياة كما ترآءى لعينيه وتمضي الدقيقة الأولى فالثانية، وقبل مضي الدقيقة الثالثة تطلع الجائع بعينيه إلي ثمرة مانجو يانعة أسكرته رائحتها فتهلل بشراً بها وظل يمني نفسه بالتهامها لو استطاع أن يضربها بعصاه، ومد يده بقوة إلى شجرة المانجو ولوح بعصاه في الهواء فخارت قوى أصابع قدميه وسقط من فوق السور علي كومة من سعف النخيل الجاف ،وأحدث ارتطامه بالأرض صخباً وضجيجاً ،وهنا هبت الكلاب الحامية للبستان من غفوتها، وعلا نباحها، ولم تمض تلك الدقيقة إلا ووجد محسن)نفسه محاصراً بين نباح الكلاب، ونظرات صاحب البستان الحائرة الغاضبة، وقد انقض غضبه على ما كان يملك من الحلم والسكينة (ونظر إلي الرجل لائما ولم ينطق بحرف واحد، لكنه وبخه بعينيه، وماذا تفيدك ثمرة مانجو واحدة حتيىوإن أكلتها دون تقشير !؟

ولم يرد محسن على نظرة سليمان ،إلا بنظرة صامته يلتمس

فيها عذرا حين قال بعينيه لماذا تلومني وأنا جائع فقير!!؟ ونظر عم سليمان إليه في أسى، ثم غاب لحظات وعاد إليه بإناء فخاري به ماء بارد ،ثم مد إليه يده فتناول الرجل إناء الفخار وأفرغه دفعة واحدة في جوفه كأنما يطفئ نارا مستعرة، وسمع محسن صوت عم سليمان لأول مره يخاطبه متلطفاً معه بغير غلظه قائلا لماذا يا هذا سرقتني !؟ وكان بإمكانك أن تطلب مني فأعطيك

فقال محسن :

وعيناه تنظران إلي الأرض بانكسار ((سبق جوعي أدبي وغلب ظمأي حيائي))

فقال سليمان في هدوء وهل تظنني بخيلاً حتى أمنع جائعاً مما يقيم به صلبه ؟

فقال محسن في حسرة: حين اشتدت المظالم نسي الناس الأخلاق، ولم يبقى لهم إلا تعاليم الغابة، ولم أطق أن أرى نفسي في موضع شفقة من أحد ،وآثرت الموت على أن يحنو عليَ أحدهم أو أن يرق لحالي، ونظر صاحب البستان في دهشه قائلا :

لماذا حاولت سرقتي ألم يكن بإمكانك استئذائي قبل فعلتك ؟

كان الخوف من الهلاك أكبر من أن أحسب حساباً لعبد، وكنت طامعاً في عفو ربي وغفرانه ،وها أنا بعد أن أصبحت بين يديك

أترك الأمر لك، فإن عفوت فلك الشكر وإن عاقبت فليس عليك لوم أو عتاب، فإنك صاحب حق ولك في رقبتي دين.

أنا مدين لك بالحياة حتي يمنحني ربي ما يعصمني من أن أقف بين يديك، أو يدي سواك هكذا.

ونظر سليمان حينها إلىالأرض وبقي للحظات يتنهد في صمت ثم قال في هدوء :

انصرف يا هذا فقد عفوت عنك، ولكن أرجوك ألا تعود لمثلها مهما قست عليك أيامك .....

لقطات من حياة مسافر

كان ((مختار أبو زيد)) قد مل طول الانتظار لزوجته التي لم تكن تزيد في عينيه عن احدى ابتلاءات القدر، ولكنها كانت في تلك اللحظة التي أرغمته فيها على السفر بشكل مفاجئ وبرفقتها الى الاهل في محافظة المنيا بصعيد كانت قد بذلت جهدا خارقا في أن تبدو جميلة وفي منتهى الاناقة عندما علمت خلال اتصال هاتفي متأخر ليلة أمس الاربعاء أن خطبة أختها الصغرى تحدد لها ظهيرة اليوم الخميس بشكل مفاجئ لم تكن تحسب له حسابا كسائر أفراد العائلة، نظرا لظروف خاصة بالخطيب الذي ظهر أيضا هو الآخر بصورة مفاجئة في حياة الأخت الصغرى أثناء دراستها الجامعية بكلية التربية وكان الفتى الذي تقدم لخطبة الأخت

((ميادة)) أخت زوجة مختار الصغرى قد ابتسمت له الاقدار وتأكد له أنه ضمن المسافرين إلى خارج مصر في بعثة علمية للحصول على درجة الدكتوراه في الادب الانجليزي من احدي الجامعات الأوروبية بعد أن قضى سنوات عدة في الدراسات

التمهيدية حتى حصل على درجة الماجستير منذ فتره من كلية الآداب بجامعة المنيا، لكنه كان في زيارة لصديق قديم عندما ألقت الاقدار في طريقه ((مياده)) قبل عدة شهور، وكانت العلاقة بينهما قد توطدت على مدى أسابيع قليلة مضت قبل أن يصارحها برغبته بالارتباط بها بصورة رسمية، وقد قرر والد الفتى أن تكون الخطبة وعقد القران في وقت واحد حتى يسافر الابن وعند عودته في أقرب فرصة متاحة يتم زفافه

لم يكن مختار يرغب ف السفر مرة أخرى إلى تلك القرية البعيدة في مركز دير مواس؛ لأنه لم يكابد مشاق سهله في عمله حتى يتفرغ لزواج أخت زوجته منذ أسبوعين حتى يفاجئ بالاضطرار إلى السفر من القاهرة إلى المنيا وليس من حي الهرم بالجيزة حيث يقيم إلى منطقة المرج بضاحية عين شمس بالقاهرة عندما تحامل كثيرا على نفسه ليشارك في حفل زفاف فريال الأخت الوسطي لزوجته ناديه محمد المهدي منذ عدة شهور مضت.

وها هو الآن يقف أسفل العقار الذي يقطن بالطابق الرابع منه في حالة يرثي لها فهو لا يقوى على تحمل الانتظار أكثر من ذلك.

حيث أبلغه سائق السيارة التي استأجرها ليستقلها مع زوجته

ناديه وطفلته ريم انه في الطريق إليه خلال دقائق، ربما لا تتعدي خمسة إلى عشرة دقائق على الاكثر ولم يكن يدرك ما هو سبب تأخر الزوجة كل هذا الوقت عن اللحاق به، وحتى لا يتكبد مشقة الانتظار ظل يتحرك يمينا ويسارا ثم ينظر إلى ساعته مرة تلو أخرى.

ثم انطلق إلى متجر قريب واشترى علبة سجائر كان يدخن منها بشكل متواصل حتى كادت سجائره تنفذ ولا يزال واقفا يجول ببصره بين الناس والسيارات والمارة وعمال المقهى القريب ومرة ينصت إلى آية تتلى ومرة أخرى يذوب مع مقطع من أغنية قديمة تتهادى إلى أذنيه من متجر قريب .

قام بعدة محاولات للاتصال بكل من الزوجة والسائق ونفسه تكاد تحترق من الداخل ولسانه بلا حركة يكاد يلعن كل شيئ ويسقط السماء كسفا على زوجته والسائق والبشر جميعا

لكنه يواسي نفسه بكلمات قلائل وهو يبتسم في مرارة دون أي عبارات ينطق بها لسانه

معلش يا ميخا ثم يتنهد متأوها ويصيح في أعماقه صوت ينعي حظ الرجل العاثر

ستات بقى هنقول ايه الله يلعن أبو الجواز لأبو اليوم اللي فكرت أتهبب فيه.

وأخيرا ظهر السائق مترديا معطفا أسود ، وعلى رأسه طاقيه نبيتي، ولم يكن الرجل عذب الصوت أو رقيق الملامح فقد كان أسمر البشرة ضخم البنيان ذو شارب كثيف وشفاه غليظة وأسنان مغطاة بطبقة بنية اللون كريهة الرائحة من آثار القهوة وتدخين السجائر، وما إن هدأت سرعة السيارة حتى فاجأه الرجل قائلا في صوت متحشرج كنهيق حمار باكيا :

حضرتك أستاذ مختار ؟

لم يكن مختار قد أفاق بعد من هول الصدمة فتلعثم في القول مترددا ثم قال أخيرا :

أيوه يا أفندم أنا .

أمال فين المعلم سيد خصير صاحب العربية ؟

فقال الرجل وهو يقهقه في بلاهة منقطعة النظير صعبة الوصف

محسوبك الاسطي عدوي عبد ربه تقدر تقول كده الدراع اليمين للاسطى سيد، والراجل بيعتذر لحضرتك وبيقولك انه صبح الصبح لقي بنته تعبانه وخدها وطار على الدكتور.

وقبل أن يجد مختار فرصه للرد أو التفكير فيما يجب قوله رفع الرجل يديه ضارعا بالدعاء

ربنا يشفيك يا فاطمه يا بنت عم سيد ثم واصل الحديث فجأة:

بنت زي العسل لما تبتسم في وشك تلاقي الدنيا في عينيك فجأة قلبت جناين ورد، آه والله يا أستاذ.

رفع مختار حاجبيه دهشة، وقد أفحمه وألجم لسانه ما يفعل به ذلك الرجل الهابط من السماء فجأة ، وتلك المرأة التي تبدو كأنها عروس تتزين في ليلة عرسها رغم أن طفلتهما كانت على مشارف الالتحاق بالمدرسة الابتدائية بعد عدة شهور.

همس مختار إلى نفسه مواسيا :

نهارنا أزرق بالصلاة على النبي، عديها على خير يا رب قبل أن يتمتم في همس لا يكاد يسمعه أحد:

ملعون أبوك لأبو سيد خضير لأبو بنته على الدكتور في يوم ما يطلع له شمس،

ثم ابتسم فجأة في مرارة؛ لأنه لم يستطع كتمان ما يدور في عقله قائلا في هدوء: منور يا اسطى عدوي، ثم حاول أن يمتص صعوبة الامر فأخرج علبة السجائر وعلبة الثقاب، ومد يده إلى الرجل وهي تحمل سيجارة قائلا :

صباحك فل يا اسطى، ثم قال في ود حاول أن يبدوا طبيعيا غير مصطنع :

قولي الاول حضرتك فطرت ولا لسه، ضرب الرجل على صدره فيما يوحي بالامتنان والشكر قائلا :

آه الحمد لله طبعا يا أستاذ هو فيه حد بيصبح يسافر على لحم بطنه ؟

ابتسم مختار قائلا :

صحيح عندك حق بس أنا قلت اتطمن عليك يا ريس ،أخوك ابن بلد وبيفهم ف الاصول والواجب برضه.

أجاب الرجل مبتسما في امتنان :

باين على حضرتك يا أستاذنا محدش يتوه في أولاد الاصول، رد مختار شاكرا للرجل مجاملته الرقيقة :

الله يبارك لك وبما اننا بنسجر بقي نكمل الاصطباحه وأجيب لك واحد شاي على ميه بيضا يضبط الكلام.

ضحك الرجل مقهقها ثم التقت الاكف بينهما قبل أن يرد شاكرا وهو يمني نفسه بالمزيد :

كلك ذوق يا أبو الواجب والمفهومية، وعندما تحرك مختار لإحضار الشاي كانت ناديه قد غادرت الشقة وطمأنت مختار بأنها خلال ثواني ستكون أسفل المبنى فتهلل وجه الرجل، وارتسمت

عليه علامات الرضا ثم همس في نفسه :

يا مسهل الحال يارب عدي اليوم ده على خير

ولم تمض عدة دقائق حتى كانت ناديه أمام السائق تسأله في دهشة :

هو حضرتك اللي مسافر معانا ولا المعلم سيد فأعاد الرجل في عجاله ما ألقاه على مسامع زوجها قبل دقائق، ثم قال مبتسما : كلنا ولاد مهنة واحده يا مدام

فقالت في هدوء وهي تجول بعينيها يمينا ويسارا :

و فين هو أستاذ مختار يا حج ؟

فقال الرجل مبتسما وهو ينظر إلى قوام المرأة الفارعة الممتلئة دون أن يعطها الفرصة لتدرك ذلك كأنما يسرق لحظة متعة عابرة :

راح يجيب اثنين شاي بس واضح كده انه مفيش وقت،ثم حرك لسانه فوق شفتيه في توتر وهو يقول بلهجة لا تخلو من دهشة مصطنعة :

والله ما كان له لزوم احنا كده هنتعطل ومحدش ضامن ظروف الطريق

وقبل أن تعقب ناديه بحرف واحد واصل الرجل قائلا: ربنا يسترها علينا وعلى الجميع، ثم دارت عيناه في أرجاء المكان حتى لا تلاحظ انه يفحص جسدها بعينيه التي تحولت فجاة إلى جهاز اشعة دقيق كاد أن يري ما تخفي الثياب التي لم تكن على قدر عالي من الاحتشام وكانت ملامحها توحي بأنها كائن لا يمكن أن يكتفي برجل واحد.

أخيرا ظهر مختار الذي أعياه طول الانتظار حاملا بين يديه أكياس بلاستيكية صغيره بها علب معدنيه من المشروبات الغازية وبعض قطع الشيكولاته والبسكويت، وما لبث أن وصل إلى السياره حتى نظر إلى زوجته بغيظ وهو يردد في سخرية شديده :

ما لسه بدري كنتي خدتي لك كمان ساعه ولا حاجه ،فأشارت بيدها إلى رأسها وقالت مبتسمه كأنها تقدم التحية العسكرية، صباحك فل كله سلف ودين ومردوده يا عم مختار.

فكظم الرجل غيظه بابتسامه مشيرا إلى السائق ليتحرك في سفر طويل لم يسلم فيه عقل مختار من الغليان ولا أذنيه من الثرثرة التي تواصلت كالملاحم والسير الشعبية التي كان يتغنى بها عازفوا الربابة في صعيد مصر على المقاهي في ليالي السمر قديما، ولكن الرجل تحامل على نفسه حتى هبت على رأسه فكره

رائعة أن يبحث عن مقاطع قصيرة من روايات عربيه احتفظ بها على الهاتف المحمول منذ فترة؛ ليقهر بها صداع الرأس الذي أصابه طيلة الطريق حتى وصل إلى مهمته التي من أجلها تحمل كل هذا العناء ولم يكن يدري ما تخفي له الأقدار في طريق عودته لكنه كان يتمني أن تكون العاقبة خيرا فلم يفعل كل هذا لا ليكون فقط اجتماعيا ومتفاعلا حتى لا تشعر زوجته بأنه شخص أناني لا يحب الا نفسه رغم أنه كره في هذا اليوم الزواج والانجاب والسفر وتلك الساعة التي خرج فيها من بيته ليخطب زوجته التي لم يعد يحتمل حتى سماع صوتها لأي سبب ولو أبلغته بأنه أصبح وزيرا

أنا خريج توك توك

في منتصف مارس منذ عامين تقريبا وعلى وجه الدقة في صباح يوم الأربعاء، التاسع من مارس أقامت كلية الآداب بجامعة أسيوط حفل تكريم للطلاب المتميزين في الأنشطة الطلابية بالجامعة، ولم يكن الحفل يخلو من فقرات أدبية كانت زاخرة بالكثير من لمسات الإبداع من كثير من الطلاب وتبارى الكثيرون منهم في عرض كل ما أنتجت عقولهم في مجالات الشعر والقصة القصيرة والفنون المختلفة بالإضافة إلى فقرات من الموسيقي، والنحت والرسم وغيرها من ألوان النشاط الثقافي وحضر الحفل الطالب

(نجم الدين مصطفي حسان)

شاعر العامية الأشهر بالجامعة على مدي سنوات دراسته الاربعة بالجامعة وطلب أحد الحاضرين من الفتى أن يلقي على الحاضرين بعضا من الأشعار سواء كانت من إبداعه الخاص أو شعرا لأحد نجوم الشعر البارزين بمصر والعالم العربي.

وقبل الفتى دعوة أستاذه ثم صعد إلى منصة التكريم، وقد

اختار احدى قصائد الراحل صلاح جاهين، لكنه بعد أن صعد إلى المنصة ووجد نفسه يواجه مكبر الصوت، ويقف في ثبات وثقة أمام الحاضرين و ضجت القاعة بالصفير والتصفيق؛ لأن أصدقاء نجم المقربين كانوا يعلمون عنه عشقه للطرفة والدعابة فبدأ الفتى مبتسما وهو يهمس قائلا :

يا أساتذة بعد اذنكم وبدأ يتجول ببصره بين الجالسين ف القاعة قائلا :

معلش يا جماعه ------ أنا نسيت اللي كنت محضره

وسرت عاصفة من الضحك فجأة بين الجالسين فنقر أحد الأساتذة بأصابعه حتى يهدأ الضجيج ونهض نجم متحمسا وهو يقول مبتسما

من أروع ما قرأت لصلاح جاهين هسمعكم بس يا دوب مقاطع صغيرة كده، واعذروني أنا مش عارف أعمل ايه بصراحة ،الموقف ده جديد عليّ لكن زي بعضه ،ثم بذل الفتى جهدا خارقا ليحول بين انفجار الضحك بصورة كان يعلم أنها سوف تسبب له حرجا ولمن رشحه لإلقاء الشعر أيضا ، لكنه تمالك نفسه فجأة وصاح بصوت مجلجل :

أنا شاب لكن عمري ألف عام ------ وحيد لكن بين ضلوعي زحام

خايف ولكن خوفي مني أنا ------- أخرس ولكن قلبي مليان كلام

فجأة هدأت القاعة تماما حتى صار الناس يسمعون فقط صوت أنفاسهم، وصمت الحاضرون مما شجع الفتى على أن يواصل إلقاء الشعر حتى تجاوز الدقائق العشرة الأولى، قبل أن يتصبب عرقه خجلا ،فأنهى المواجهة بقوله :

أنا قلبي كان شخشيخة أصبح جرس ---- جلجلت بيه صحيوا الخدم والحرس

أنا المهرج قمتوا ليه – خفتوا ليه --- لا ف ايدي سيف ولا تحت مني فرس

وتنهد الفتى بارتياح عميق وبعد لحظات أطرب الحاضرين بأزجال من ارتجاله عندما زادت ثقته بعد أن أنصت الحاضرين فتشجع، وبدأ يهديهم مزيدا من أشعاره وأزجاله .

وفي نهاية اللقاء حصل على شهادة تكريم وميدالية فضيه والتقط عدة صوربرفقة الأساتذة الذين قاموا بالتدريس له، وبتقديم الدعم له اثناء دراسته الجامعية، وخرج الفتى من القاعة محتفظا بشهادة التكريم والميدالية الفضية ومبلغ مالي كان قد حصل عليه تعبيرا عن اعتزاز الكلية والجامعة بابنها الموهوب

صاحب السجية الرائعة، والقدرة الفائقه على إلقاء الشعر،وتأليفه بكل ألوانه من عامية وزجل إلى فصحي وشعر عروضي مقفى، ومضت الشهور والفتى نجم هو الأشهر بين أقرانه بعد أن شاع بين الاصدقاء وغيرهم صيته كشاعر مغوار وفارس من فرسان الكلمة لا يشق له غبار، ومضت عدة شهور ليتخرج نجم الدين وتبقى في الذاكرة فقط حلاوة الايام ولذتها وذكريات الجامعية والشعر والمعسكرات والرحلات الجامعية إلى أماكن كثيرة ، وبقيت أيضا في ذهنه ذكريات جميله لتجارب عشقه الاولى عندما كان على نقائه الذي عاش به طيلة عمره، وبقي الفتى عدة شهور بلا عمل، لكنه كان قد بدأ يستشعر الحرج أن يكون شابا قويا مفتول العضلات، ثم يبقى في بيته لينفق عليه أبيه، فلم تعد حتى الفتيات في عصرنا ترتضي لنفسها هذا المصير.

وأخيراً قرر الفتى أن يسافر إلى أبناء عمومته بالقاهرة وفي مخيلته حلم يراوده منذ زمن بعيد، كان يحلم أن يمارس عملا كريما يحقق له عائدا مقبولا، ومن خلاله يتفرغ لنظم وتأليف الشعر، ولم يكن الأبنودي منه ببعيد، وكان الفتى قد لاحظ بزوغ نجم الشاعر الجنوبي هشام الجخ والأديب والروائي أحمد مراد، فوضع نصب عينيه أن هؤلاء ليسوا من المريخ ولكنهم كائنات أرضية وأدباء وشعراء من مصر نفس الأرض، نفس اللغة إذن لا

مجال للمستحيل

هكذا صور الفتى لنفسه ثم قرر أن يعمل بمهنته الأصلية.

اخصائي اجتماعي بعد أن حصل على ليسانس الآداب من قسم الاجتماع، وكانت أفكار الفلاسفة وعلماء الاجتماع التي درسها بالجامعة قد ذهبت أدراج الرياح كما تبخرت أيضا كل الذكريات الحلوة عندما اصطدم الفتى بأول صخور الواقع ،فلم يجد عملا في مجال التخصص على الاطلاق وانتهى به الحال بائعا في أحد المحال الكبرى للملابس الجاهزة بالقاهرة، ثم أمضى عدة شهور كان قد حصل خلالها على مسكن بسيط لا يزيد على حجرة واحدة ملحق بها دورة مياه بأحد الشوارع الجانبية وفي احدى الحارات المتفرعة من شارع جانبي آخر يمتد إلى شارع الحرية المتقاطع مع شارع جسر السويس أحد أشهر شوارع العاصمة المصرية القاهرة وأمضى الفتى شهورا متواصلة لا يجد في الحياة جديد.

كان يسأل نفسه على فترات متقطعة ما الذي جاء بي إلى هذه الأرض ؟

هل جئت لأشاهد النساء التي تعج بهم الشوارع ليلا ونهارا وهن يستعرضن الأنوثة والدلال ؟

أم جئت لاستهلك نفسي وعمري في عملا يوفر لي بالكاد طعاما وكساء؟

لكنه لا يمتد إلى ما أتمناه لنفسي بأي صلة على الإطلاق ؟

إذا كان الامر هكذا فالأجدر بي أن أعود إلى بلدتي وأفلح الأرض، وأعلم الصبية حتى قراءة القرآن بلا أجر لعلى أنال رضا الله، لكنه لم يعد إلى بلدته بعد أن نمى إلى علمه أن هناك مسابقة دوليه ف الشعر والفائزون فيها يتم الاحتفاء بهم اعلاميا فسارع الفتى إلى الاشتراك ف المسابقة، لكنه وجد عقبه أن المسابقة تشترط تقديم ديوان مطبوع، وسارع الفتى إلى مشورة أحد الأصدقاء، وتدخل الصديق

((فادي ريان)) ليقوم بدور الناصح الأمين فأعطاه ورقة بها رقم هاتف صاحب إحدى دور النشر، وما إن أشرقت شمس اليوم التالي حتى توجه الفتى إلى لقاء صاحب الدار الذي تعاقد معه على نشر ديوانه الأول في ٥٠٠ نسخه بالمكتبات وأن تكون مدة التعاقد عامين وأن يشترك صاحب الدار نيابة عن الشاعر في مسابقات الشعر المحلية والدولية.

باسم الكاتب وديوانه طوال مدة التعاقد وانه لا يجوز للشاعر أن يفسخ التعاقد أو يقوم بنشر ديوانه خارج دار النشر إلا بموافقة

الناشر، وفجأة أشرقت الدنيا في عيون الفتى وعلا صيته شاعرا كبيرا كتبت عنه الصحافة ، وتمت استضافته على قنوات التليفزيون

وبعد فتره اكتشف الفتى نجم حقيقة الامر

وهي أن الثقافة في مصر أصبحت((سبوبة)) لكل متعطل وعمل يعمل به كل من لا يجد مهنة

فلم يقم الناشر بما طلبه منه الفتى بنشر الديوان بالمكتبات وخفت نجم الفتى مرة أخرى وانحسرت عنه الأضواء رغم موهبته الفذة وانتهي الامر أخيرا بأن تم فسخ العقد واعتزل الشاب الكتابة التي كانت عشقه الاول بعد التعرض لأول صدمة لم يكن يحسب لها حسابا.

وأصبح يقضي نصف يومه بين المقاهي والارصفة التي تجمع العاطلين عن العمل حتى أشرقت شمس يوم واستيقظ فيه الفتى مبكرا بغير مبرر تحدوه الرغبة في تحدي الفشل من جديد، وسافر إلى بلدته ليحصل على نصيبه من تجارة كان قد شارك فيها أحد الأصدقاء منذ فتره لم تتجاوز عامين؛ لأنه كان من الشباب الذين يعملون أثناء الدراسة بالجامعة، وقد قرر أن يواجه تجربة الكتابة الادبية مرة أخرى بعيدا عن دور النشر التي

تمارس عملها من (بير سلم) ويقوم على ادارتها من يطلق عليهم ف الأوساط الثقافية (فواعلية الثقافة)، ومرتزقة الفكر الذين يتاجرون بأحلام الشباب الطامحين في تحقيق أحلام الشهرة والنجومية، وبعد أن حصل الفتى على نصيبه من تلك التجارة عاد الفتى إلى القاهرة، ومازال يراوده الحنين إلى أيام المنصة الجامعية الشهيرة، لكنه قرر أن يشتري (توك توك) حتى يتكسب رزقه من عرق جبينه ولا يعمل موظفا لدى أحد مقابل أجر شهري فلم يكن يطيق البقاء في مكان واحد لسبع ساعات متواصلة، مما حدا به إلى التفكير في عمل ينتقل فيه من مكان إلى آخر، وسارت الحياة بهذا الفتى لعدة أشهر في تلك المهنة الجديدة (سائق توك توك)، وبدأ يخالط الناس ويستمع إلى أحاديث الناس عن الفقر والجوع وعن الغش والطمع، وعن علاقات غير مشروعة تنشأ ثم تنتهي في الخفاء، ولقاءات أخرى تنشأ في الظلام ويتعذب بثمارها المحرمة أصحابها شهورا أو سنوات، وربما يمتد العذاب بلا نهاية عرضت عليه مهنته كل البشر الجاد والمستهتر والضعيف والقوي والفقير والغني.

غاص الفتى بعقله وروحه في هذا العالم الذي يموج بالأفكار التي وجد فيها خصوبة ليكتب من جديد وعاوده الحنين إلى القلم فكانت ملكة الشعر بداخله محبوبة وعشيقة لا يقوى على فراقها

طويلا، وعاد يكتب الشعر من جديد حتى حانت ليلة التقى فيها بصديق قديم

(مستر رأفت أبو الخير)، وكان الرجل موظفا بجامعة أسيوط وقد انتقل إلى العاصمة قبل عدة أعوام ؛ لأن الحياة أجبرته على ترك موطنه والهجرة إلى القاهرة فرارا من ظروف خاصة، وعرف الفتى بالصدفة البحتة أن رأفت أبو الخير الذي كانت تربطه به مودة قديمة يقيم في بيت قريب من مسكنه الحالي، وبعد فترة توطدت علاقتهما ، وتكررت اللقاءات بينهما، وصار رأفت الصديق الوحيد الذي يقصده نجم كلما استبد به الحنين إلى أيامه الجميلة فيحتسيان معا أكواب الشاي الممزوج بالنعناع، ويلعبان بالنرد وقد اعتاد الفتى منذ فترة أن يدخن النارجيلة فوجد رفيقا له ينفث مع دخانها تباريح الحنين إلى زمن مضى، وكانا يتجاذبان أطراف الحديث حول كل شيئ من النساء إلى الشأن العام حتى حانت ليلة موعودة.

التقيى رأفت بأحد الأصدقاء القدامى، والذي كان يعمل بإحدى شركات البترول، ودار بينهما الحديث عن الجديد في حياة كل منهم وجمع لقاء بين الثلاثة

(رأفت، ونجم الدين، ومصطفي شعيب) وبعد أن تعرف مصطفى شعيب ـ الذي كان يود مساعدة نجم ـ على الفتى قص

عليه ذلك الشاب الموهوب ما رأى من أهوال خلال رحلته بالعاصمة، والتي أبدلته الدنيا خلالها بكل ورود الخيال أشواكا ، وعندما سأل مصطفى الفتى نجم قائلا له --- انت خريج كلية إيه يا صديقي

قهقه الفتى ضاحكا في مرارة قبل أن يرد بلا اكتراث :

متشغلش بالك اعتبرني خريج توك توك.

نوفمبر ١٩٩٧ م

في منتصف الليل عندما دقت الساعة بإحدى المحطات الإذاعية معلنه الثانية عشر صباحا تذكر الفتى الحائر (ياسر أبو الخير) .

إنه لم يذق طعم النوم على مدى يومين كاملين بعد أن علم بأن الجامعة قبلت أوراقه، ليكون واحدا من طلابها الملتحقين بكلية الحقوق، ورغم التعنيف المستمر من أبيه ذلك الريفي البسيط الذي لم يكن يترك له الفرصة ليراجع دروسه حتى في ذروة أيام الامتحانات المعروفة بأنها تسبب ضغوطا نفسية وعصبية لا حدود في نفوس الطلاب، إلا أنه شعر بأن شمس الحياة قد أشرقت بعد أن انقشعت سحابة اليأس الجاثمة على صدره منذ سنوات، لم يكن عقله يستوعب كيف يستقبل بعد ساعات قلائل يومه الجامعي الأول على أرض العاصمة المصرية القاهرة، وكيف يكون له مكان في مدرجات الجامعة وأنه بعد قليل سيكون ولأول مرة في تاريخ حياته التي قضى منها ثمانية عشرة عاماً دون أن يغادر قريته في صعيد مصر سوف يدرس بجامعة القاهرة .

و كيف سيكون مواطنا قاهريا ؟ سؤال يغلي في العقل وتتسارع نبضات القلب شوقا إلى الإجابة عليه بعد أن اعتصرت الحيرة قلبه وألهبت روحه إلى الحد الذي جعله في تلك الليلة يتوارى عن الأصدقاء وينزوي في أحد أركان الحجرة التي كان ينام فيها، وليس ببعيد عنه ذلك الفأس الذي كان يفلح به الأرض منذ أن بدأ يستشعر في نفسه القدرة على حمل الفأس عندما بلغ مبلغ الرجال، لكنه انزوى عن الآخرين في تلك الليلة ليترك لعقله الفرصة لينسج له حلما جميلا وليستوعب ما هو آت .

ماذا عساه أن يحمل له الغد القريب ؟ سؤال يدور في مخيلته وتبعته أسئلة أخرى

تري كيف ستكون تلك الجامعة ؟

ومتي تكون أول محاضرة ؟

وما هو المدرج ؟

وما هو سيكشن العملي ؟

وهل هناك سيكشن عملي بالكليات النظرية أصلا ؟

ماذا يرتدي غدا عندما ينطلق إلى العاصمة لأول مرة ؟

وأين سوف يقيم ؟

أسئلة كثيره بلا إجابات تمرق في عقل الفتى كالشهب التي تهبط من السماء في سرعة البرق الخاطف، ثم تدور مرات ومرات ولا تجد لثورتها في عقله الحائر الذي يموج بالأفكار ثمة إجابه

فجأة يبتسم ياسروهو يهز رأسه في دهشه متعجبا من أمره عندما دار في عقله سؤالا لم يجد له إجابه، ولم يكن له في ذلك البحر المائج المليئ بالتصورات وأطياف الأحلام من رد مقنع رغم ما يقاسيه من عناء وتوتر تخالطهما سعادة يعجز عن التعبير عنها بأي كلمات .

لقد كان يقاوم النعاس ولا يزال يحاصر نفسه بالاستفسارات رغم إرهاقه البدني والذهني، وفي تلك الساعة المتأخرة لم يجد لطوفان الأسئلة الذي يدور في عقله كمروحة محرك السيارة عند سرعتها القصوى إجابات شافية.

لم تكن قدرات العقل تستوعب كل هذا،ولم يكن لأي حديث موضع قط ،لكنه همس بهذا السؤال لنفسه وهو يبتسم مخاطبا نفسه :

يا تُرى شكل البنات إيه في الجامعة وهل زي بتوع الفلاحين اللي هنا كده ؟

ولا لابسين قصير وضيق زي بنات الجامعة بتوع الأفلام ؟

وهل فعلا فيه صحوبيه ورحلات وكده ولا ايه ؟

أخيرا ينظر إلى جلبابه الريفي الطويل والواسع الاكمام، ثم يمعن النظر إليه قائلا بابتسامة باهته

راحت عليك بقى من بكره قميص وبنطلون ويمكن للأبد .

كاد أن يسمع صوت ضربات قلبه الذي ينتفض فرحا، وهو يرقص بين ضلوعه، ونظر إلى جيب جلبابه فوجد فيه بعض من الجنيهات فقرر أخيراً بعد طول صمت أن يمنح نفسه سعادة وهميه فانطلق إلى متجر قريب واشترى علبة سجائر تعمد إخفائها وكان معها أيضا حفنة من حبات الفول السوداني وزجاجة مياه غازية.

إنه لا يزال يمد يده إلى أبيه، أو أخيه ليحصل على مصروف يومي، وعندما عاد إلى محبسه الاختياري الذي فرض على نفسه البقاء فيه تلك الليلة فرض على عقله أن يهدأ قليلا ليستعد لمغامرة جديده كتلك التي يخوضها مسافراً عبرالبحر إلى بلد أوروبي على متن قارب صغير في مغامرة محفوفة بالمخاطر بحثا عن المال، أوالمجد الذي لا يرى سواه دافعا إلى ذلك مثله في ذلك مثل الشخص الطامح الذي تخلو حياته من كل شيئ إلا حلم يدفع ذلك الطامح إلى المال أن يضحي بكل شيئ حتى عمره لا لشيئ إلا الرغبة في ثراء سريع لا يعنيه أين مصدره وما مدى

مشروعيته من عدمه، وأشرقت الشمس وجاءت (ماجدة زيدان) تلك الأم التي لم تكن تتمنى أن تحين لحظة الفراق بينها وبين هذا الابن الذي لم يغب عنها طيلة عمره حتى تلك اللحظة يومين متتاليين البته.

إلا أنها طمأنت نفسها بأنه فتى طيب وكان يلازم المسجد وسوف يحفظه الله، وكانت أحاديث الأب والأقارب قد هدأت من مخاوفها بشأن غيابه الطويل في تلك المرة لكنه بعد أن أخذ حمامه الأخير في ذلك اليوم، وتناول إفطارا سريعا وصافح كثيرين من الأقارب الذين اجتمعوا لوداعه وسار بصحبة أخيه وهو يلوذ بالصمت خشية أن يرى المحيطين به ما يدور في عقله فيقذفونه بالنعال بدلا من ذلك العناق، وتلك القبلات الحارة التي أغرقت وجنتيه، وتلك الدموع الحارة التي زرفتها العيون في وداعة فقد كان يضمرأن لا يعود إلى البلدة قبل مُضي فصلا دراسيا كاملا مهما كانت مغبة الأمر وعواقبه، كان يريد أن يثبت للعالم بأسره ولنفسه أولا انه الآن رجلا، وسوف يتصرف كما يتصرف الرجال، لكنه التزم الصمت حتى لا تفضح الثرثرة خبيئة نفسه التي أصبحت سوداء من شدة القسوة، وصدأت من طول الحرمان فبقي يتلقى التعليمات من أخيه الذي حصل على أجازه ليومين متتابعين حتى يتمكن من تمهيد الطريق لأخيه الأصغر في الحياة

الجامعية قبل أن يتركه وشأنه ليعود إلى عمله وحياته بالقرية وعندما قضى ياسر ليلته الأولى حتى غابت الشمس، لم يكن قد خرج من مسكنه قط في تلك الليلة إلا ليشتري طعاما من مكانا قريبا، وعندما بدأت نسائم فجر اليوم الثاني نهض الفتى مسرعا وقد جهزنفسه لحرب ضروس مع الحياه بحثا عن المتعة أيا كان مصدرها .

وكانت تلك المرة الأولى في عمره التي يفعل بها ثلاثة أشياء لم يكن قد اعتادها في حياته السابقة على الإطلاق، كان أولها تدخين سيجارة علنا في وضح النهار دون اعتبار لأي مخلوق على ظهر الأرض إنه الآن غريبا ولا يهتم بمن حوله من البشر .

ثم كانت القنبلة الثانية عندما اقترب من زميلة له عند أحد أبواب الجامعة ليغازلها عند الدخول من الباب الرئيسي للجامعة فرأت الفتاه في عينيه وملامحه ذلك الفأس التي تركه بالحقل منذ يومين على بعد عدة مئات من الكيلو مترات، لكنها لم تشأ أن تهينه أمام نفسه فابتسمت في صمت فكان ذلك دافعا له ليُقدم على الأمر الثالث الذي لم يكن يعهده طيلة عمره وهو أن يبحث عن ((كافيتريا الجامعة))

ليشتري طعاما وشرابا من باب الرفاهية، ثم ذهب يبحث

عن مقعدا قريبا، أو متكأً لعله يُنشئ علاقة جديده مع صديق أو صديقه، وانقضي يومه الثاني ليبحث في صبيحة يومه الثالث وقبل أن يعرف موعد المحاضرات، أو أسماء المحاضرين أو تفاصيل المواد الدراسية وماذا سوف يدرس لقد بحث فقط عن مسرح الجامعة لينضم إلى فرق التمثيل بالكلية ليمارس هوايته التي جاء من أجلها أصلا إلى كلية جامعيه على أرض العاصمة وحارب شهورا طويله وسنوات عدة ليحقق هذا الحلم الذي ما إن وجد الطريق إليه حتى نسي كل شيئ حتى الاهل والماضي والمستقبل من أجل أن يسعى إلى اشباع رغبته في الاحتكاك بعالم الفن والموسيقى، ذلك العالم الذي كان في حياته طيلة عمره الماضي هو المخدر الوحيد الذي يعينه على احتمال كل الآلام الناتجة عن الكبت والازدراء لكل ما يدور بعقله من أفكار وآراء اعتبرها البعض هرطقة والحاد، والبعض فسق وفجور واعتبرها قلة من الناس هفوات مرحله لا تلبث أن تزول لكنها أزالت أمامها كل شيئ كالطوفان الهادر وبقيت في حياته حلما يطارده حتى أمسك بأول أهدابه عندما وصل إلى بوابة المسرح الجامعي ليقضي في العاصمة ثلاثة أشهر متتالية حتى أرسلت إليه أمه تطلب لقائه عندما حاق بها مرض عضال فخشيت أن تودع الدنيا قبل أن ترى ذلك الابن الجاحد الناكر لفضل الجميع إلا نفسه فقط بعد

أن ابتلعته العاصمة بأضوائها وبهجتها كما تبتلع الأمواج العاتية الأطفال الذين لا قدرة لهم على الغوص، أو السباحة ضد التيار كما ضعفت قوى الفتى فأسلم عقله وقلبه للغوص في بحر الحرية والتحرر من كل القيود بعد أن استعبدته طويلا تقاليد البيئة التي كان يثور عليها كأنها انظمة الحكم المستبدة في عصور مضت حتى وإن كلفه ذلك الأمر التضحية بكل غال ونفيس فقد رفض حياة الأسرة التي كانوا يرونها (ثوبه الذي يليق به) ليرتدي ما اختاره لنفسه حتى وإن بدى أمام كل المحيطين به في بيئته الأولى عاريا من التقاليد والقيم والأخلاق .

رجل بره ورجل جوه

استيقظ (أكرم مهدي أبو الوفا) متأخرا من نومه في هذا اليوم فلم يعر اهتماما

على الاطلاق لضبط المنبه في ذلك اليوم وكان قد نسي أن اليوم هو بالأساس عطلة رسمية بالدولة ؛ لأنه عيد الميلاد المجيد لدى الأقباط الأرثوذكس، لكنه لم يهنئ أحدا قط بهذا العيد

فلم تعد ذاكرته التي كانت فيما مضي خزانة للمعلومات والأسرار تسع الكثير من الأشياء ولا الأشخاص ولا الأماكن، لكنها ولسبب غير معلوم نشطت فجأة كأنما استعاد شخص وعيه بعد غيبوبة طويلة فنهض من فراشه متاوها من آثار الالم الذي يذكره دائما بانه علي مشارف السبعين من عمره، أخيرا يتنهد طويلا ثم يرتدي نظارته الأنيقة ويبحث عن شيئ ما .

لحظة صمت يتذكر بعدها ما يريد أن يبحث عنه

أخيرا يتذكر أنه يريد حذاء الحمام والمنشفة الخاصة به قبل أن يعود الى الحياة بعد بث تجريبي من ((قناة الخلود)) لا يراه

إلا نائما عند كل ليلة حيث يحلم كثيرا بالموت بعد أن

أصبح وحيدا في الحياة منذ ما يقرب من أربعة عشر عاما عندما رحلت زوجته أثر مرض مزمن أوهن قواها في سنواتها الأخيرة قبل أن يرافقها الى مثواها الأخير في إخلاص نادر من مرض خبيث لصديقه المريض الذي يفر من صداقته فرار الشاة من الذئاب .

خرج أكرم من الحمام بعد أن استعاد نشاطه وأشرق وجهه بالحيوية كأنما عاد ثلاثيني العمر والسنوات، من جديد حاول أن يمارس نوعا من النشاط ولو اقتصر على تحريك اليدين فحسب، لكنه لم يستطيع بعد أن تضاءل حتي اندثر مفعول حمامه الدافئ الذي كان ينعم به منذ قليل.

توجه أكرم على الفور الى حجرة أخرى من حجرات شقته ذات الحجرات الأربعة والصالة الفسيحة ودورتي المياه التي كانت إحداهما تخصص للضيوف، والأخرى لأصحاب الشقة والمطبخ الكلاسيكي التي كانت مساحته تكفي لإقامة حجرتين على الأقل وعندما دخل إلى الحجرة الأخرى أضاء التلفاز ليبحث عن جديد فلم يجد .

خيمت على وجهه المشرب بالحمرة وعيناه الزرقاوين سحابة

من الكدر والضيق فقرر أن يبدأ يومه بالإنصات إلى القران الكريم؛ لعله يلتمس نوعا من الأنس والبركة بالاستماع إلى كتاب الله والانس بالصوت العذب للشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد رحمه الله

وعاد أكرم أخيرا إلى سريره ليقوم بترتيبه بنفسه فلم يكن أحد يزوره من الأهل إلا قليلا رغم ما كان يغدق عليهم من الأموال والهدايا في كل مناسبة دينيه بداية بعيد الفطر، وحتي في الأيام المهمة في حياة المصريين كذكرى نصر أكتوبر ويوم شم النسيم .

ألقى الرجل بصره فجأة على رواية كان قد انهمك في قراءتها لعدة أيام ولسوء الحظ لم يستطع حتى اللحظة الراهنة أن ينتهي من قراءة فصلها الأول .

إنها رواية الجريمة والعقاب لديستوفيسكي

أخيراً تحدث المفاجأة التي لم تكن مزعجة، أو عنيفة الأثر في نفس الرجل

ينقطع التيار الكهربائي فيخرج إلى الشارع ليلتمس من الشمس دفئا أو ضياءا، لكنها توارت خلف غيوم ثقال وفي دقائق معدودة عاد الرجل إلى بيته بعد أن شعر بأنه لا جدوى من التوكأ علي

عصاة خشبية للبحث عن مكان يأويه في تلك الساعة المبكرة، فقرر أن يعود ولو لزم الأمر أن يصادق في هذه الدقائق المظلمة جدران شقته، لكن الأقدار أشفقت عليه فعاد التيار الكهربائي في هدوء ، وانشغل الرجل بتحضير طعام وتسخين خبز وتقشير ثلاث بيضات

مع أطباق الجبن الابيض ، وبعض الطعام المعلب الذي أصبح الحصول عليه سهلا من ذلك البقال القريب الذي يرسل أحد أبنائه لجدو((أكرم)) يسأله عما يريد؛ لأن الرجل كان أكثر تعاطفا مع المحامي السابق الذي وهنت قواه فتخلى عن عمله بالمحاماة، كان ذلك البقال وفيا له

ربما حتي من بعض أفراد عائلته؛ وذلك لأنه كان قديما يخدم ذلك البقال وأسرته في أمور كثيرة، وربما جاء وقت الوفاء بالجميل عندما أصبح الرجل حبيس الجدران بعد أن كان قبلها أحد الموظفين المهمين بالدولة حيث عمل مستشارا لبعض الوقت.

لكن وفاة زوجته التي لم تكن قد أنجبت له وريثا كانت قد قلبت حياته رأسا علي عقب حتى انه لم يفكر في الزواج بعدها لسبب مجهول لم يكن له علاقة مباشرة بضعف البصر وتجاوز

الخمسين من العمر آنذاك إنه الآن يحاول أن يستمتع بكل ما أوتي من قوة بما تمنحه له الحياة حتى الهدوء والصمت يحاول أن يقتله بأن يجعل دائما هناك صوتا قريبا منه يشعره بالأنس والضجيج .

أغاني في مرة، وقرآن كريم مرات عديدة، وابتهالات طوبار، والنقشبندي في أوقات أخرى.

أخيرا صوت مياده الحناوي ينطلق في سماء الشقة الواسعة مرة أخرى ومن جديد، لكنه بعد أن انتهى من تناول افطاره أقدم على أمر اعتاده منذ فترة.

أن يقف صامتا لبعض الوقت أمام صورة زوجته وأمه وأبيه ، وكان يحتسي الشاي لأول مرة أمام تلك الصور التي تم تثبيتها على الحائط المقابل للسرير في غرفة نومه ولم يفعل ذلك منذ فترة، لكنه الآن فقط يتذكر كل لحظة مضت من عمره كما يتذكر الأطفال في كتاب القرية ،وحلقات تحفيظ القرآن وطريقة المشايخ في التلقين الآلي للأطفال، وترديد الطفل بلا وعي وفي أسلوب لا يدل على فهم أي شيئ قط .

أخيرا صوت يمزق ستائر الصمت المطبق على تلك الشقة ، إنه صوت وقع أقدامه عندما تحرك ناحية صندوق مجوهرات الزوجة، وكان هو الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه في تلك

الشقة منذ بدأ النهار حتى كاد ينتصف .

أخرج الرجل صندوق المجوهرات الفارغ الذي تبرع بكل ما كان فيه تصدقا على روح زوجته لبناء أحد المساجد، ولم يبقى بذلك الصندوق المبطن بالحرير سوى صورة باهتة قديمة لا ألوان فيها لحفل زواجه الذي مضى عليه ما يزيد على أربعين عاما.

تذكر ليلة زفافه فابتسم، ثم دمعت عيناه قبل أن يتنهد متأوها وهو يهز رأسه هامسا

وحشتيني يا ثريا، اللّه يرحمك يا فرحة عمري الوحيدة

ولم يلبث أن توجه فورا عندما ارتفع الأذان للصلاة، لكنه شعر بالدوار فخشي أن يصيبه مكروه فاضطر إلى الصلاة في المنزل وعندما فرغ من صلاته عاد إلى ذكرياته البعيدة وكان قد تذكر أمه وعطفها عليه منذ أن كان صغيرا ،وكانت روح الكوميديا والمرح تلازمه في صباه عندما كان يرافق الصبية في الحقول فيلعبون ويلهون حتى إذا اشتد بهم الجوع بحثوا في الحقول عما يأكلون فكانوا يبحثون عن حقول الفول، ثم يتناولون قرون الفول الأخضر، وبعض من ثمار الذرة التي كانت تنتزع من الحقول انتزاعا، ويتحملون المشاق في سبيل التمتع بلذتها فكانت الذرة

المشوية على الجمر الذي يتم إشعاله من أعواد الحطب الجافة، لها لذة خاصه ولاسيما عندما تهب رياح عاصفة ويتخذ الصبية من ثيابهم حواجز لتلك الرياح أمام النار، ليزداد الوهج ويحلو الطعم أكثر فأكثر ، وما أحلى تلك الأيام حين تختتم تلك المباراة بكوب من الشاي الحقلي على ما تبقى من فحم الذرة الذي لا تترك جمراته حتى تخبو ويكسوها الرماد إلا وقد أطعمت وسقت الصغار والكبار .

كانت نفس الرجل تهفو إلى مثل تلك الأيام لكن هيهات .

انتابت الرجل حالة من الشجن فنهض فجأة وبدل ثيابه قبل أن يهم بمغادرة الشقة فرار من الملل، لكنه طرح على نفسه سؤالا لم يجد له ثمة إجابة :

(يا ترى أروح لمين ومين ف البلد دي ممكن بيته يساعني دلوقتي ؟) أخواتي مثلا

هيقولو يمكن عايز حد يساعده ف أكل ولا يخدمه ف حاجه ف بيته

الأقارب ؟ وكل واحد ملهى في حاله ودنيته

والأصحاب فيهم اللي سافر ولا مشغول ومعادش حد فاضي لحد

رفع وجهه أخيرا إلى السماء قائلا بصوت مسموع :

افرجها من عندك يا رب ثم تضرع إلى الله رافعا يديه يدعوا في خشوع

((أسالك يا رحمن أن تنزل عليا رحمتك أو أن يحل بي قضائك)) لكن فجأة غمرته سكينة وبهجة لم يكن يعلم لها سببا فقد تذكر الأمس القريب .

مساء الثلاثاء الماضي حين اجتمع كل الفتيات والشباب في العائلة في بيته وأقاموا احتفالا بعيد ميلاده واشتد الصخب والضجيج، وتناثرت الفرحة وعلت الأغنيات وصدح صوت محمد منير وتصفيق وصفير وضحكات مجلجله تزيد المكان حياة وتملئ جوانبه بالبهجة قبل أن ترتسم الفرحة على الوجوه ويعلو المرح وتسود روح جديده تهب الحياة حياة وتنثر الدفيء في أرجاء المكان، وكانت النجوم الزاهرة قد صنعت له عقدا من النور كأنه القمر المكتمل ليلة البدر وتوالت الهدايا وسمع عشرات المرات

((هابي بيرث دي تو يو))

وكل سنه وحضرتك يا جدو وحبيبي يا خالو وأحلى عمو ((أكرم)) في الدنيا

كانت تلك اللحظة وحدها كفيلة بأن تعيد له الأمل في الحياة

لينشرح القلب وتشرق شمس الرضا وتعقد أيامه صلحا بينه وبين الدنيا، وقد قبل الرجل ببنود الصلح لكنه أراد أن يشكر من كانوا سببا في سعادته فيما مضى، فغادر البيت قاصدا زيارة مقابر العائلة وبعد تلاوة القرآن والتضرع بالدعاء عاد إلى شقته، وهو يمتلئ بشعور متضاعف بالرضا عن الدنيا، ولم يكن يتمنى المزيد سوى أن يقدم لأي إنسان قريبا كان أو بعيدا ما يسعده فقد أصبح يرى أن البسمة التي يزرعها على شفاه الناس تغرس في قلبه وردة ربما يبقي عبيرها مئات السنين حتى بعد أن يرحل ويصبح مجرد ذكرى كان يجتهد فقط لتكون جميل .

ليلة مقتل صابر

جلس (صابر أبو الحمد بركات) واجما عند مدخل الطابق الثاني لمنزله الريفي البسيط وكان قد اعتلى درجات السلم المؤدي إلى الطابق الثاني عندما اقتربت الساعة من الثانية صباحا قبل أن تمضي عده ساعات مرت كأنها دهرا كاملا، فلم يعد الرجل يحتمل من قسوة الايام أكثر مما رأى بعد غياب ابنه (فؤاد) الذي قضى فترة عقوبة على إثر التورط في جريمة لم يكن يجول بخاطره يوما أنه سوف يتورط فيها لأي سبب ما عندما زج أحد الشباب باسمه كذبا وبهتانا في قضية اختفاء فتاة قبل عدة أعوام واحتمل الاب صابر في غياب ابنه الاكبر من عذابات الدنيا ما تنوء به الجبال رغم شموخها وصلابتها وغابت الابتسامة في تلك الليلة عن وجه ذلك الرجل الذي بدا صامتا طيلة الوقت بعد أن كانت ابتسامته تملأ الدنيا مرحا وتنثر الورود والرياحين على كل من يعرفهم فلم يكن معروفا عنه إلا حُسن الخلق وطيبة القلب ورحابة الصدر وحب الحياه، وبرغم كل ما كان يقاسي من ويلات الدنيا لم يتأخر عن أحد في كرب من الكروب، كانت الشهامة

إحدى سماته البارزة في شخصيته، وكان عطوفا على الضعفاء يواسي كل من ألم به ضيق ولا يرد من يستغيث به عند الشدائد، هكذا كان صابر الذي مكث في تلك الليلة مهموما على غير عادته ولم يكن بوسعه أن يفعل شيئا إلا أن يعبث بأسنانه ممسكا بين أصابعه عودا من الثقاب، وبعد أن شعر بالضيق والتوتر نهض من مكانه ليتجول في شوارع القرية فلم يكن النوم رفيقا له في تلك الليلة بعد أن مضت ساعات عصيبة تمكن خلالها من حسم خلاف نشب بين مجموعه من الشباب في بدايات المراهقة على أثر خلاف طارئ تسببت فيه ذريعة تافهة، وهي أسبقية اللعب في وسط ساحة كبرى تقع بالقرب من منزله بوسط تلك القرية البعيدة في ريف مصر التي شهدت طفولة الرجل وشبابه وقضى بها زهرة عمره .

وتوجه الرجل إلى تلك الساحة الواسعة بالقرية ونظر في وجوم تام إلى البيوت والمحال التجارية والجدران وأغصان الأشجار ولم يستطع أن يفصح عما يجيش به صدره من مشاعر غامضة، لكن تلك النظرة ربما كانت دون أن يعلم أحدا .

نظرة الوداع الأخيرة لهذا المكان الذي طالما سمع فيه الناس صوت ضحكاته المجلجلة وضجيج مزاحه مع الكبار والصغار فقد كان يضفي حالة من البهجة على أي مكان يتواجد به ويمازح الكل؛

ربما لأنه لم يكن يعلم متى النهاية لكنها أخيرا حانت.

دون أن تهبه السماء إنذارا مسبقا برؤية ملك الموت بعد ساعات قلائل؛ ولذلك استشعر الرجل أن هناك أمرا لا يستطيع تفسيره يسيطر على مشاعره وقلبه، لكنه هزم كل المخاوف والأحزان.

وعاد إلى بيته ليخلو إلى نفسه قليلا عندما قرر أن يجلس القرفصاء عند زاوية بداخل حجرة نومه متمتما ببعض الآيات من القرآن وأخيرا يشبك يديه أمام ركبتيه متنهدا في عمق دون حديث .

وبدأ أصابع اليدين المتشابكة تتحرك في عشوائية تنم عن توتر شديد عندما كان إبهام يده اليسرى يدور حول إبهام اليد اليمنى في كلتا يديه بسرعة فائقة حتى لاحظت زوجته ذلك الأمر فشعرت بالفزع لتقطع عليه تلك الوحدة المرعبة بقولها :

مالك يا صابر انت قلقان ليه كده ؟

ويرد الرجل بكلمات قلائل بدا منها الحسم والصرامة أكثر من أي وقت مضى

((نامي يا وليه وسيبيني في اللي أنا فيه))

شعرت الزوجة بالرعب حتى جف حلقها واقتربت من زوجها

معاتبة في نبرات حزينة

((مالك يا أخويا كفى الله الشر))

ثم تساءلت في حيره انت قلقان من إيه يا أبو فؤاد قبل أن تستطرد محاولة التخفيف من توتر الرجل بقولها سيبها على الله يا أخي وقوم نام لك شويه،فنظر إليها الرجل ولا يزال محتفظا بصمته وفي عينيه سؤالاً حائرا لم تدركه الزوجة آنذاك، لكنها تحاملت لترسم على وجهها

ابتسامة بلاستيكية مستوردة لا روح فيها كالدمى الصغيرة والورود الصناعية، كان قلبها يرتجف رعبا، لكن الرجل لا يحتمل المزيد من القلق.

لكنها أخيرا تهزم القلق بعد صراع مرير عندما نهضت وهي تهمس إليه :

يا أخويا قوم اتسحر واشرب شوية ميه ونام لك ساعة قبل الفجر انت ناسي إن بكره صيام ؟

ثم رفعت بصرها إلى السماء وهي تبتهل في خشوع :

إلهي، ربنا يفرج همك ويفك كربك ببركة الشهر الكريم

فنظر الرجل إلى زوجته نظرات مفعمة بالإشفاق قبل أن يقول:

نامي يا أم لبنى وسيبيها لله .

المكتوب على الجبين محدش يقدر يفر منه، ولم يستطع الرجل أن يواصل السهر أكثر من ذلك فبدل ثيابه ودخل إلى فراشه، لكنه لم يذق للنوم طعما على الإطلاق فعندما أغمض عينيه لم يرى إلا صورة أبيه الراحل مرتديا ثيابا بيضاء وتملأ الابتسامة وجهه الذي يشع منه نورا غامضا يبعث الطمأنينة في النفوس، وهو يقول في صوت رقيق يقطر حنانا :

وحشتني يا صابر ازاي حالك يا ابني استحمل يا ابني معلش هانت ، وفجأه يضيق صدر الرجل الذي نهض مفزوعا، لكنه كتم ما رأى أثناء غفوته عن الجميع حتى لا تصاب زوجته بصدمة ربما تودي بحياتها .

فنهض مسرعا كأنما ينطلق إلى سفر طويل وبدّل ثيابه ليتوضأ وأتم وضوءه، وشرب جرعة ماء ليستعد لصيام اليوم الخامس عشر من شهر رمضان، وكان قد عقد نيته على أن يبذل أقصى ما يستطيع لينهي الخصومة بينه وبين أبناء عمومته الذين فرقت بينهم خلافات نشأت عن ((لهو وعبث طفولي بحت)).

وأعاد الرجل ارتداء الثياب التي سوف يصلي بها وعدّل عمامته فوق رأسه، ثم خرج قاصدا المسجد القريب وهو يدعوا

الله أن يمر هذا اليوم بسلام فلم يكن قد أفاق بعد من طوفان النكبات والمصائب التي حاقت به على خلفية غياب الابن الأكبر لعدة سنوات وما قاساه الرجل من أعباء كانت قد أذهبت عنه البهجة وأذاقته طعم الحزن رغم تجرعه كل شيئ مما عايش من الشدائد بصبر وثبات لا يقوى عليه إلا أصحاب الصلابة من الرجال الذين قل وجودهم في هذا الزمان، وأخيرا نُودي للصلاة واجتمع المصلون حتى إذا فرغت الصلاة أقر الرجل بأنه سوف يتسامح في كل شيئ، ولكنه يحتاج لبعض الوقت ربما لساعات حتى تهدئ النفوس الثائرة وأظهر الجميع ترحيبا بتسامح الرجل بعد أن تعرض ابنه الأ صغر للإصابة جراء اشتباكات الأمس ولم تمضي إلا دقائق قليله حتى تدخلت الفتنه في الأمر فأشاعت إحدى النساء بين رجال وشباب العائلة أن الحج (عامر حمدون) قد لقي مصرعه في معركة دارت رحاها قبل دقائق وهنا اشتعلت الحرب وأصبح صابر أبو الحمد وأبنائه فقط في مواجهة جحافل من المحتشدين الغاضبين للأخذ بثأر قتيل لم يقتل وعند الغضب تسكن كل الاصوات إلا ((زغاريد الشيطان))

الذي أوحي لواحد من الشباب بأن يقتل صابر غدرا بضربة واحدة .

أصابت الرجل في مقتل فسقط صريعا ، وانطفأت بهجة

الدنيا وسكنت الريح وارتفع نعيق البوم في ساحة المعركة فلم تنقضي و تمضي تلك الساعات العصيبة حتى أتت على حياة رجل شهد له الجميع بأنه كان يجود بوقته وقوته على كل محتاج ويقف عونا مع من يحتاج منه العون وسندا لكل ضعيف وكان قلبه يسع الدنيا بأسرها وابتسامته تبخر الأحزان كما تصهر الشمس الجليد عندما تبتلعه الرمال في ظهيرة صيف، وشعر الناس أن البهجة قد ماتت، وضلت الفرحة طريقها إلى القلوب بغير إياب.

ومضت دقائق بطيئة ثقيلة حتى أعلن نبأ وفاة صابر الذي بكته النساء والأطفال، وشيعت جنازته جموع الشباب والرجال، وخيم الحزن على البلدة طويلا فلم تكن هناك احتفالات بقدوم العيد، ولا مراسم عند عقد قران، أو زفاف احتراما لما شهدته حياة هذا الرجل من نهاية مأساوية وهو ذلك الرجل الذي أحبه الجميع، وحزن لفراقه كل من عرفه أو سمع بخصاله الطيبة .

وبعد أن شُيعت جنازة صابر وقف ابنه عند باب القبر مودعا فلم تدمع عيناه، لكنه كان يقسم بأغلظ الأيمان دون أن تتحرك شفتاه على الاطلاق، أنه لن يترك هذه الدنيا حتى تبرد دماء الرجل الذي فعل المستحيل من أجل هذا الفتي، ووقف الفتى فؤاد واجما حتى بعد أن انصرف المشيعون .

لا أحد يعلم فيما يفكر ولا أحد يستطيع قراءة ما يدور بعقل الفتى، لكنه عاهد الله وهو ينظر إلى قبر أبيه الراحل أن يلقن كل من اشترك في هذه الكارثة درسا ربما تذكره الأجيال بعد أن تمضي مئات الاعوام، وعاد الفتى ليعد العدة لما ينوي القيام به، ولم تكن ترتسم على وجهه أية دلائل لما ينوي فعله حتى يحين وقت الحسم، ويدبر فؤاد أمره فقد التزم الصمت والكتمان، ولم يكن أقرب المقربين إليه يستطيع أن يقرأ حرفا واحداً مما هو متوقع، أو وشيك الحدوث .

أو نتخذه ولدا

في يوم تقليدي عاشته قرية مصرية في سبعينيات القرن الع شرين كان الحاج (عبد التواب خليل) قد انتهى من طعام الافطار، وبدأ يعد العدة ليذهب الى حقله الذي لا يبعد كثيرا عن منازل القرية، ولم يكن يحول بينه وبين فأسه والمزيد من العرق والجهد كسائر أيامه ، الّا رشفات قلائل بقيت من كوب الشاي الصباحي الذي يرافقه منذ صباه كسلوك دأب على ممارسته، فلا طعم لليوم قبل أن يتكرم على نفسه المجهدة (باصطباحة)

يعلو بها المزاج ويصفو الخاطر وتتلاشى الأحزان

أخيرا يعيد ترتيب عمامته فوق رأسه ثم يتنحنح وهو يهم بالنهوض مبتسما

(أفوتك بعافية يا أم نجوى) ثم يحك لحيته بأصابعه قائلا في عبارات مفعمة بالقلق :

لو حسيتي بحاجه وأنا ف الغيط ابعتي لي (عيل) يناديني، وأنا

في غمضة عين هتلاقيني قدامك، وارتسمت ابتسامة على وجه زوجته الخمسينية التي بدت شاحبة الوجه على غير عادتها، فقد كانت على قدر من الجمال لا بأس به، وكانت بشوشة الوجه دائما، الّا في ذلك اليوم الذي بدأت فيه آثار الحمل تؤرقها فنهضت من نومها شاحبة الوجه؛ لأنها كانت تعاني من إجهاد عابر منذ فترة، ثم مضى إلى حال سبيله بعد مكث بينهم ضيفا ثقيلا غير مرغوبا فيه لعدة أيام

توالت في تلك الأيام بناتها نجوى وسلوى خدمة أمهم ، وتلبية احتياجات الأب، بينما انشغلت سناء باللهو بتلك الدمية البلاستيكية التي كانت تمثل كل عالمها آنذاك

ومضت عدة ساعات والرجل يعكف على فأسه ولا يلقي بالا الى عرقه المتصبب وضربات القلب المتسارعة حتي توقف عن العمل فجأة، ورفع وجهه الى مصدر الصوت القادم من بعيد يصيح في نبرات لاهثة متهدجة، مما جعل قلب الرجل يكاد ينخلع رعبا فألقى بالفأس مهرولا نحو الفتى القادم وهو يصيح بلا هوادة :

((يا حج عب تواب)) ثم يكرر وهو لا يعطي نفسه فرصة لالتقاط الأنفاس

((يا حج عب تواب)) قبل أن يهتف لاهثا

سيب اللي ف إيدك يا حج وطيران عالبيت

فقال الرجل في نبرات زادها الرعب حدة

مالك يا واد يا رجب نشفت ريقي فيه ايه ؟

ثم صاح معنفا وهو ينظر الى الفتى في دهشة

((ما ترد))

تمالك الفتى نفسه وهدأت عباراته ثم واصل حديثه اللاهث قائلا وهو ينحني الى زجاجة بلاستيكية ويفرغ نصف ما بها من الماء البارد في جوفه

((الست خضرة)) جارتنا جت صحتني من النوم وقالت لي

((والنبي يا رجب ينوبك ثواب أخطف رجلك للحج عبد التواب وهاته ف ايدك وتعالى))

تهلل وجه الرجل بشرا وأثلج الخبر صدره وان لم يكن مطمئنا تمام الاطمئنان فقد ساورته الشكوك لأن امرأته علي مشارف الخمسين

ولا زالت تنجب البنات ولديها فتاة تركت المدارس قبل خمسة أعوام ولا تزال في بيت أمها

((كالفانوس لا يذكره الناس الّا عند مطلع هلال رمضان من كل عام))

ولم يعيرها أحداً من شباب القرية اهتماما قط؛ لأنها سمراء هزيلة تبدوا نائمة وتتصرف كالمخمور ولم تؤتى من الملاحة ف الوجه وجمال القوام الّا قدرا يسيرا، لكنه حدّث نفسه قائلا :يمكن ربنا يخلف عليّ بولد من صلبي يسندني ف شيبتي

العمر مش مضمون ويبقى كمان سند لأخواته البنات لأنه؛

مفيش ليهم حد من بعدي غير ربنا وحده

((وأنا راجل مش من ذوي الاملاك حتى يتبارى الناس الي مصاهرتي ونسبي))

طمعا فيما عندي

لكنه تفاءل خيرا من باب حسن الظن بالله وبدل ثيابه مرة أخرى، ثم امتطي حماره في عجالة

ووكزه ليسرع الخطي الي بيته حتي تهدأ نفسه بعد ثورتها وشجونها التي ثارت، ثم هدأت، ثم ثارت من جديد فقد أسعده نبأ (القابلة) التي أرسلت في طلبه، لكنه يخشى أن تكون البنت الرابعة قد أوشكت على زيارة بيته

لتصبح الأعباء أربعاً والمخاوف أربعون فانجاب البنات عند كثيرا من أهل الريف لعنة يجب اتقاء شرها بما استطاعت إليه يدهم من التعاويذ والقلائد سبيلا

لكنه أخيرا تنهد مبتسما وقال في نفسه لعل ف الأمر خيرا

وبعد أن استراح الرجل والتقط أنفاسه جاءته القابلة من مكان بعيد في حجرة معزولة داخل البيت تبشره بقدوم المولود الرابع حلم العمر كله، وقضى الرجل عدة شهور وهو ينتظر النبأ السعيد حتى أطل شهر رمضان الكريم ببشائره وبركاته، وظل الرجل طيلة الشهر الفضيل لا يبرح المسجد الّا قليلا يبتهل ويتضرع ويصلي، وعندما يخلو إلى نفسه في بيته لم يكن يسمع في جهاز (الراديو القديم) الذي يعمل ((بأحجار البطارية الجافة)) سوى إذاعة القرآن الكريم وصوت المبتهل نصر الدين طوبار حتى حانت اللحظه المنتظرة وعندما

(بشرته القابلة بمولد أنثاه الرابعة) (ارتسمت على وجهه للوهلة الأولى دلائل الحزن لكنه،كظم حزنه وغضبه وقرر بشكل مفاجئ)

أن يسافر خارج مصر الى أرض الحجاز معتمرا، ولم يقيم أفراح أو احتفالات عند بلوغ المولودة أسبوعها الأول كما جرت العادة في مصر

وترك تسمية الأنثى لإمها التي أسمتها (نعمة) تسليما بقضاء الله ورضا بحكمه

وكان أحد شباب القرية قد تقدم ليخطب الابنة الكبرى نجوى، ولكن أخو الزوجة

(فاضل بدران) كان قد قرر تأجيل كل شيئ حتى عودة والد الفتاة من سفره، وبعد أسابيع عاد الرجل وقد نسي كل ما كان وأتم خطبة ابنته وأعد العدة لتجهيزها للزواج، ثم تزوجت الفتاه وأنجبت طفلا اسموه

(عبد الرازق) وهو الذي ولد في بيت جده بعد سفر الاب للعمل بالقاهرة التماسا لسبل الرزق بعد أن ضاق به المقام في قريته، وعرف أن ضيق ذات اليد لن يشفع له وعنده مولود قادم وأعباء ماليه سوف تزيد لكنه كان علي يقين بأن

((من خلق الخلق يرزق عباده ويتكفل بهم))

وقد أتاح لهم غياب زوج ابنتهم فرصة لأم زوجته لترعى طفله ((عبد الرازق)) حتى كبر وأصبح ينطق الكلمات ولو بتعثر لحداثة سنه فكان ينطق الكلمات مبتورة الأحرف، ويقول لكل من أمه وجدته (ماما) فكان ينادي جدته ماما وينادي والدته (أمه) ومرت السنين وجاءت الليلة الموعودة التي نهضت فيها

زوجة الحاج عبد التواب، وهي تشعر بألم اعتادت الا يزورها الّا عند كل حمل جديد بعد أن كان الرجل قد فقد الامل تماما، لكنه تفاءل خيرا عندما ذهب الي طبيب المدينة بعد أن كان الليل قد انتصف، وقضى فترة طويلة جدا في انتظار الطبيب لكنه بعد أن عاد من زيارته للطبيب مكث حتى الصباح ساهرا يحلم بما يتمنى

ماذا لو صار حقيقه ؟

ونظر الي زوجته التي لم تقوى على السهر فنامت حتى دون أن تطفئ مصباح الكيروسين ذو القارورة الزجاجية التي كانت تعكس ضوءا خافتا كان يعتبر مصدر جذب للبعوض الذي رافقهم طيلة هذه الليلة، لكن الأمل الذي استيقظ في نفس الرجل أنساه حرارة الجو ولدغ البعوض، فلم ينم حتي أدى صلاة الفجر، وخرج من صلاته يتنسم عبير الفجر ويترقب الطيور السابحة في الفضاء طلبا للرزق، وقضي فترة بين الحقول لا يعي ماذا يريد ، ولا أين يذهب لكنه علي أية حال كان قد وجد في نفسه رضا لم يشعر بمثله منذ فترة طويله عن الحياة والناس والايام

و عاد الرجل يعكف علي فأسه ويتعهد غرسه ويروي أرضه كأنما ليس في الامر ما يستحق الاهتمام، ومضت عدة شهور قبل أن يزورهم ((عريس القرية كلها))

الطفل المنتظر والأمل الباسم كما شعر به الاقارب والجيران الذين وفدوا مهنئين بقدوم

((بركة)) وكان للاسم عندهم دلاله كأنما يأملون في هذا الطفل أن يحمل اسمه البشارة بقدومه؛ لينير حياة الاب وتقر به عين الام الذي كانت تتولى حفيدها بالرعاية حتى تلك اللحظة، ومع قدوم الفتى بركة حانت لحظة الفرحة الكبرى فانقضى الاسبوع الاول، وقرر الرجل أن يقيم لهذا الطفل بيتا بالطوب الاحمر والاسمنت الذي لم يكن يبني به ف القرية الا الأعيان وعليه القوم بدلا من ذلك البيت التي شيدت حوائطه من الطوب اللبن العتيق، ولم تكن قد دخلته الكهرباء بعد وتأجلت مراسم الاحتفال بمقدم المولود السعيد حتي تم الانتهاء من بناء المنزل الجديد واعداده للفارس الذي يأملون في وجوده بينهم خيرا ودخلت الكهرباء بيت الحاج عبد التواب للمرة الاولي واشترى الرجل لفرحته بمولد طفله جهاز راديو جديد وصار يتعهد الفتي بألوان الرعاية الفائقة ، وعند حلول ذكرى يوم مولده بعد عام من يوم مولده الاول أولم الرجل القرية كلها واختص جيرانه وأقاربه بما لذ وطاب من طعام بعد أن نحر الذبائح وسمع الناس لأول مرة بعد زمن طويل صوت المطربة (فاطمه عيد) وانتشرت ورود الفرحة ورياحين البهجة و السعادة وبدأ الغناء والطرب يتردد في

بيت رجل عرف عنه التدين والتقوي وحسن الخلق وطيب الذكر وبشاشة الوجه، لكنه كان يحتفل في ذلك اليوم بأن منّ الله عليه بما كان يرجوه طيلة عمره

وشب الفتي مدللا لا يرفض له أحد من أهل البيت طلبا ولا تتكسر له كلمه وكان التدليل الذائد سببا ف الكثير من المتاعب التي اكتوي بنارها كلا من الاب والام علي السواء لكن الاب الذي كان يري في هذا الفتي ((حلم عمر))

طال انتظاره و كان يتصدى لكل المشكلات ويعتذر للجميع ويحتمل الكثير ويبذل كل غالي ونفيس في سبيل سعادة الفتي ((بركه)) المدلل بصورة تعلو علي كل وصف وتفوق كل تصور

حتي بلغ الفتي مبلغ الرجال وصار ينظر الي فتيات القرية نظرة رجل يريد أن تكون له حكايات نسائية وتجارب وبطولات في دراما العشق وقصص الغرام ومغامرات الشباب الطائش ولكن الاب لم يسمح له بذلك لأنه يعلم أن الامور عندما تتعلق بالنساء يكون لها شأن اخر فسارع الي أن يرشح له فتيات للزواج حتي يضمن استقامة اخلاق الفتي الذي صار معوجا منذ الطفولة لكن الفتي تمهل واستأذن أباه في أن ينهي تعليمه الثانوي أولا ونفذ الاب رغبة الابن الذي ما ان انتهي من مرحلة التعليم الثانوي وحصل

علي دبلوم المدرسة الثانوية حتي رشح له أبيه احدي فتيات القرية وكانت علي قدر عالي من الجمال والحسب واعتبر الفتي أن الفوز بتلك العروس مغنما تهون أمامه تضحيات كثيره فكان عندما تمت خطبتهما لا يعصي لها أمرا ولا يرد لها طلبا لكنه استطاع بعد فترة استمرت طويلا من التفكير والتشاور مع بعض الاقارب أن يقنع اباه بانه سوف يذهب الي عمه الوحيد لتصفية خلاف قديم بين عمه وأبيه منذ أن توفي الجد قبل عدة أعوام وبعد أن غاب الفتي فتره في ضيافة عمه عاد الي أبيه ليستشيره في أمر كان الفتي قد أسره في نفسه منذ فتره فقال له ذات ليله عندما ذهبت أمه لزيارة احدي جاراتها

(بقول ايه يا آبا)

رد الاب بكل حنان : قول يا بركه طلباتك أوامر يا ابني

رد الفتي بكل حكمه : أنا شايف انك بعيد عن عمي من فتره وأنا كان نفسي نقرب من بعض ونبقي عيله واحده وبيت واحد من تاني يا آبا فقال الاب وقد أعجب بحلاوة منطق الابن وصدق حديثه

وماله يا ابني أنا مقلتش حاجه عمك اللي كان واخد علي خاطره من زمان

فقال الفتي وقد نزل كلامه علي سمع أبيه كالصاعقة

يمكن النسب يقربنا من بعض تاني وبلاش يا آبا تقول زي ما ديما بتكرر كلامك

((جواز القرايب ما يخلي من المصايب))

لم يكن الاب قد أفاق من صدمته الاولي حتي عاجله الفتي بصاعقة أخري قائلا

انا نفسي اخطب بنت عمي يا حج

البت أماني ما شاء اللّٰه كبرت وبقت عروسه وطالعه زي القمر كأنها مراة عمي وهي صغيره

كان الذهول قد استبد بالرجل الذي تمالك نفسه بعد أن كادت عيناه تغادران محجريهما قائلا

وخطيبتك يا ابني اللي احنا لسه متكلمين عليها

دا احنا حتي لسه مجبناش شبكة البنت ذنبها ايه (البنيه) تكسر قلبها وتحرق فرحتها

تلعثم الفتي قليلا ثم قال بعد أن استجمع قواه

يا حج الامور كلها بتبقي نصيب وده شيئ يرجع للراحة النفسية ثم تابع باصرار لم يترك خيارا للاب

وأنا غاوي أناسب عمي

ثم همس في خجل وبصراحه كده أنا حاسس انه البنت مياله ليا وممكن تقنع أبوها

حتي لو لسه ف نفسه حاجه من ناحيتك آهوه نبقي رجعنا الميه لمجاريها وصفينا العكار اللي كان مقطع حبال الود ولم يحتمل الرجل جدالا مع الفتي الذي قرأ في عينيه تصميما قاطعا وعزم لن يلين

فأرسل الرجل زوج أخته الذي كان اماما للمسجد القريب ذات يوم ومعروف بحسن الخلق والسيرة الطيبة فاعتذر لوالد الفتاه التي تقدم الفتي بركه لخطبتها وأخيرا أشرقت الحياه في وجه الفتي وأضاءت الفرحة في عينيه شموعا للسعادة وتغيرت أحوال الفتي الذي سار يقضي أيامه بين الحقل والمقهى ولقاءات لا تخلو من المرح والفكاهة في بيت عمه ومع خطيبته التي كانت تريد منه دون أن تكشف عن هذا أن يكون

طوع أمرها فيما تريد وتتمني من قرارات وتصرفات وغيرها الكثير والكثير

وبعد أن تم عقد القران بدأت الفتاه تمارس ضغوط علي زوجها المستقبلي ليجبر أباه أن يشتري له شقة بالقاهرة ليكون قريبا من مسكن العم والبيئة التي تربت فيها العروس الذي افتتن

الفتي بجمالها وابتسامتها وملامحها التي كانت قد اصبحت في عينه حورية من الحور في جنات الخلد أو كأنها خلقت من النور وغلفت بغلاف من الحرير والفضة وأحيطت بالسحر الذي ينتهي مفعوله ولا تشفي منه التعاويذ

فهي في عيون الفتي الاسمر بركة

السراج الذي ينبعث منه النور فينير الظلمات في ليل الحائرين

متعة الروح وثمار الجنة التي يكتب لمن يأكلها الخلود والملك الذي لا يبلي

وبعد أن تيقن الفتي انه لا يمكن أن يحتمل عصيان رغبات زوجته مارس ضغوط رهيبة علي الاب الذي رفض رفضا قاطعا الانسياق لرغبات أخيه وزوجة أخيه وابنتهما فقد كان يخشي أن يسرق هذا الزواج منه الفتي فيميل كل الميل الي العم وابنته وحياته بالمدينة

فيترك أباه ليلقي مصيره مع الوحدة كانه لم ينجب الذكور قط وقد أثبتت الايام أن ما كان يخشاه الرجل صار حقيقة فبعد أن تم الزفاف في ليلة لم تشهد القرية مثلها كان الرجل الذي احتضن ابنه مقبلا وظل يرقص ويمرح حتي الساعات الاولي من

الصباح كان يراوده شعورا خفي بانه ربما يودع حنان الابن الي الابد وشاركته زوجته رجاء مخاوفه وان كتمت المرأة في نفسها هذا الشعور الذي كان يقض عليها مضجعها ف الاسبوع الاخير قبل الزفاف وعندما خلت الام الي نفسها ف الاسبوع الاول بدأت تشعر أن الدنيا توليها ظهرها وانطفئ نور السعادة في بيتا خيمت عليه سحائب صمت أسود كريهة رائحته فلم يكن يؤنس وحدتها في تلك الآونة الا زيارات متقطعة لبناتها وبعض الاحفاد في الوقت الذي تلقت فيه زوجة الابن نصائح غاليه من أمها التي لم تكن توصها الا بما يعمق الفجوة بين زوج الابنة وأمه وأبيه وكانت الفتاة المطيعة تنفذ تعليمات ووصايا الام بدقة متناهيه حيث استولت علي قلب الزوج واهتمامه فلم يكن ذلك الغارق في نهر العسل المتدفق يجد متسعا من الوقت لزيارة أمه قبل انتهاء الشهر الاول من زواجه الي أن مرضت الام فكان لزاما عليه أن يتخذ قرارا بزيارة أمه وأبيه والعودة الي البلدة الصغيرة التي اصبحت في حياته مكانا غريبا لم يعد يطيق البقاء فيه طويلا حتي عاد بصورة مطلقة الي زوجته وحياته وابقي علي التواصل الهاتفي بينه وبين أمه التي لم تعد تذق طعم النوم عندما هاجمها الالتهاب الرئوي الحاد التي تطور سريعا الي تليف رئوي وانعدام قدرة علي التنفس الطبيعي مما اضطر معه الزوج عبد التواب

الي البقاء مع زوجته طويلا داخل المستشفى ولم يكن يسانده في تلك اللحظات الصعبة الا الحفيد التي تربي في بيت جدته

((الفتي عبد الرازق)) والذي كان يقيم اعتبارا وكرامة لما كانت توليه الجدة من رعاية له في صباه عندما تعلم بين يديها كيف ينطق الحروف الاولي للكلمات مكونا من تلك الاحرف البدائية كلمة ماما وكانت هي الاجدر والاحق بها ممن سواها من النساء حتي أمه التي أنجبته وأرضعته لم تكن تحتل في حياته منزلة الجدة وعندما اشتد المرض بالأم (رجاء) أرسلت في طلب ابنها لتراه ربما لأنها شعرت بدنو الاجل وتعلل الفتي المارق – (بركة) بالانشغال والتلهي بعمله الذي كان يقضي فيه أغلب وقته لينام بعد ذلك حتي وقت متأخر من صباح اليوم التالي وهكذا كانت حياته تسير من سيئ الي أسوأ حتي أشرقت شمس يوم عاصف وكانت الام فيه وحيده لا تجد رعاية من أحد الا ابنتها الصغيرة ((ثناء)) التي كانت آنذاك زوجة وأم لطفلة رضيعة وكانت توازن بين احتياجات بيتها وبين خدمة الام بينما انشغلت بناتها الاخريات بشئونهن الافي قليلا من الساعات علي مدي أيام متفرقة كن يتناوبن علي زيارتها بالمرحلة الحرجة التي عاشتها الام في تلك الفترة ولم تكن تلك الفتاه قادره علي رعاية الام بمفردها لولا اغداق أبيها عبد التواب المال علي

العاملون بالمستشفى التي تقيم فيه الزوجة وعندما حانت لحظة النهاية وجاءت سكرة الموت طلبت الام رجاء أن تكون قريبه من الشرفة المطلة علي الشارع لتمد بصرها الي نهاية الطريق لعلها تلمح طيف الابن القادم من بعيد لكنه أخلف ظنونها فلم يأتي في موعده وتنامي الي مسامع الام أصوات تثير الرعب والكآبة في النفس ولم يكن أحد سواها يسمع تلك الأصوات كأنما تودعها الدنيا ببكاء مرير

كنحيب الثكالى ونواح الغربان ونعيق البوم

وقد انقبضت نفسها قبل أن تهمس مخاطبة نفسها في

حديث متقطع كحلم المحموم أو همهمات غارق في غيبوبة الموت

ف لم يعاتبها به أحد

((ياريتني ما دعيت ربنا يرزقني بيك يا ابن بطني))

وكانت عيناها الدامعتان تنطق بلا صوت وهي ترنو ببصرها الي الشمس التي مالت الي المغيب ولسان حالها يهتف من أعماقها بلا صوت

((منك لله يا ابن عمري))

عوضي عليك يارب في شقايا وتعبي وسهر الليالي

وفي ابن بطني اللي معملش اعتبار لكل يوم أفنيته من عمري علشانه واستحملت هموم الدنيا وعذاب السنين علشان يكون سندي

مع انه كان أخر أمل ليا في عمري

ثم كررت في أسي

عوضي عليك يارب

و أطرقت تنظر الي الارض وزرفت عيناها دموع حارقه

وخيم الصمت علي المكان طويلا لكنها تنهدت في مرارة

وهمست بنبرات تقطر ألما

((ربنا يهديك يا ابن عمري))

وفجاه نظرت خلفها فوجدت حفيدها صامتا وهو ينظر اليها بدهشه وفي عينيه دموع بذل جهدا خارقا لإخفائها فأشارت اليه أن يعاونها لتبقي في سريرها قبل أن تمضي لحظات عصيبة صعدت بعدها الروح لبارئها بعد أن أوصت زوجها الذي لم يكن يغيب عن المستشفى الا قليلا بأن يبلغ ابنها أنها لن تسامحه حتي تلقاه يوم العرض علي الرحمن بعد أن خاب أملها في أن تري

((بركة)) في آخر لحظات وداعها للدنيا فلم يطق الرجل أن يري زوجته علي هذه الحالة وانصرف خارجا لعدة دقائق بلا عذر

حتي أغمض حفيدها عينيها ولقنها الشهادة وجاهد نفسه بكل ما أوتي من قوة حتي لا تراه يبكي بعد أن نظر الي وجهها وتحجرت الدموع في عينيه وهو يعلم أنه ينظر اليها لآخر مره

وكان الوقت قد مضي بعد أن فارقت ((رجاء)) الحياة دون أن تري ((بركة))

وعندما سار في وداعها المشيعون لم تكن دموع

((بركه)) تشفع له أمام شقيقاته وأزواجهم ولم يستطع ((الفتي)) أن يتقي سهاما ناريه انطلقت نحوه من كل العيون الا ذلك الحفيد الذي لم يكن يعره اهتماما فقد كان كل ما يشغله في وداع جدته الطيبة أن يدعوا لها بالمغفرة والرحمة جزاء ما قدمت له طيلة حياتها وبعدها انتهاء مراسم العزاء بساعات قليله قرر ((الحفيد عبد الرازق))

أن يبحث عن طريقة يفعل بها خيرا أو يقدم بها للناس شيئا نافعا علي سبيل الصدقة الجارية لعله يستطيع بما ينوي فعله تقديم خيرا يستمر أثره ليكون عملا طيبا يقدم من

((حافظا للمعروف)) الي روح امرأة أحسنت اليه طيلة

عمرها وفارقت الدنيا وهي تدعو له وتقبل يديه التي كانت تعينها علي احتمال آلام الوحدة والمرض في غياب ابن لم يفعل شيئا لمن قدموا حياتهم ثمنا لسعادته فكان سببا في دموع حارقة نزفت من عيون الأم قبل وداعها للحياة التي لم تكن تتمني فيها سوي أن تراه في آخر لحظات العمر

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع